سفر التيه

رواية

سفر التيه

رواية

تأليف :

محمد إبراهيم

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

تحرير أدبي:

سندس الحسيني

مراجعة لغوية:

محمد حمدي

رقم الإيداع: 2016/22455

الترقيم الدولي: 978-977-820-006-5

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com - info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعيةٍ أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابيٍ من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلةِ القانونية.

سفر التيه

محمد إبراهيم

رواية

(قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أربعينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأرض)

٢٦-المائدة

إهداء

إلى أرض تيهي، ومنجاي، وقبلتي، ومعادي.
إلى الكف الذي يربت على القلب.

شكرا،

لميـلان كونديـرا، فرانـز كافـكا، إميـلي نوثومـب، ولدينـا نبيـل أيضًـا!

عودة

عندما فتح يحيى عينيه للمرة الأولى، كان ما رآه مختلفا بالكلية عما توقع، بل لقد كان مختلفا كذلك عما عاش حياته ليعتقد.

تداخل الأبيض والأسود في سنيّ عمره بتركيزات عدة، حد أن تماهى ما بينهما من فروق.

اليوم تغيب التفصيلات الدقيقة، أم تراها تزداد وضوحًا؟ ليرى الكون أبيض مثلما خلقه الله قديما.

هذا ما مميزته عيناه للوهلة الأولى، غير أنه سرعان ما أدرك أنه لا يبصر أصلا.

على مرمى البصر، يمتد الأبيض، يغلف الكون، يطغى عليه هو ذاته، في حين كان إدراكه قد بدأ بالتشكل.

تتابع الحياة عبثها.

بدأ في إدراك قواعدها -أو غياب قواعدها- فك طلاسمها، غير أنها تواصل بلا هوادة.

عند ميلاده الأول، تفتحت عيناه على أبيض المشفى، لا يذكر هذا الآن بدقة، غير أن -حتما- هذا ما حدث.

تراه ينتظر الآن أن تنغلقا على أبيض الكفن؟!

بين الأبيضين، تمتد رقعة شطرنج سرمدية، بمربعات شتى تتماهى فيها درجات الرمادي.

من قبل، بكى بروح طفل لم يدرك بعد، غير أنه أحس.

أم تراه امتلك غاية الإدراك حد البكاء؟

تحكم الحياة قبضتها، ومن ثم تتصل بالحكمة، لو قدر للبشر فدونوا اكتشافاتهم حال اشتداد القبضة لسجلوا سفرا.

تتدافع الأفكار في عقله، يغوص في أبيضه ولا يبتغي عودة.

افتتاحية

تـذرف السـماء الدمـع مـدرارا، ومـن ثـم تتشـكل عبراتهـا كحبـات فضـة خالصـة، تجلـد بسـياط نافـذات، بينـما تمـوج الأرض بـالألم، تـرزح تحـت وطـأة الوجـع.

تغتسل الأرض من لوثة الآثام.

تنفض الخطايا عن نفوس مذنبات.

يخرج الأطفال تباعا لا يبالون.

يتخففـون مـن ملابسـهم مـا اسـتطاعوا، ومـن ثـم يركضـون نحـو شـمس غابـت بـين السـحاب.

يتلمسـون طريقهـم إليهـا، تتقـشر عـن جلودهـم الرقيقـة أغـلال الحضـارة، يسـتعيدون معرفـة الرجـل الأول وفطرتـه.

يتلمسون كرات الثلج.

يتحسسون برودتها، ويتلمسون دفئا إنسانيا حول نار الكهف.

أسكرهم البرد، والليل، والسهر.

وكلها خمر مذهبات عقل!

عطايا السماء الكريمة، تذيب أحزان البشر، أوجاع البشر.

وتبشر بشمس صافية، ستشرق حتما، وتلوح في الأفق!

-١-

تأمل حازم الجسد المسجى باستسلام أمامه على فراش المشفى. وجه وسيم غلفه الألم وإن لم ينقض على براءته البادية.

خلع نظارته الطبية، فرك عينيه المثقلتين بإرهاق الساعات الفائتة، ومن ثم التفت إلى الممرضة الحسناء الواقفة إلى جواره قائلاً:

- تابعي علاماته الحيوية باستمرار وأخبريني إن طرأ أي طارئ ما .

«قالها حازم بينما ينطق كيانه: سينجو!»

صارت نجاة الفتى أمرا حتميا يتعلق بذات حازم!

ألقى بنظرة أخيرة على الجسد المستسلم، ثم تحرك بخطوات واثقة.

عندما عبر باب الغرفة كان وجه هذا الضابط القلق هو آخر ما تمنى رؤيته. تجاهل لهفته التي لا تخطئها العين، ثم عبر الردهة الموصلة إلى غرفته بخطوات واثقة.

عبر المسافة البالغة خمسة عشر مترا. قطعها حازم في ثوان تابعته خلالها نظرات خالد بغضب. ذلك الأخير الذي نفث غضبه المكتوم في نفس حار خلال شفتيه، ثم لاحقه محافظا على مسافة مناسبة، ومحاولا قدر السعة أن يرسم على وجهه ابتسامة متسامحة وهو يجتاز باب الغرفة الذي تركه حازم مواربا.

بحركة عفوية انتزع سيجارته، وفي ثوان أشعلها قبل أن يقتحم أذنيه صوت الطبيب الصارم:

- ممنوع!

تأمله بغباء قبل أن يسارع إلى إطفاء سيجارته في مطفأة على المكتب، محاولا تجاهل امتلائها بأعقاب السجائر المختلفة!

- سينجو، أليس كذلك؟

خرجت جملته مترددة وجلة كمثل ما اعتمل بصدره، لم يدرك حينها أن قلقا مماثلا يعتمل بذات الطبيب الآن، بل إن كيانه أيضا يردد بخشوع «سينجو».

- كان السؤال ليكون أكثر جدوى لو أتى قبل ساعات من الآن، نأسف لتعطيل معاليكم على كل حال!

تجاهل خالد ما حملته الجملة من سخرية جلية.

- لقد تحركنا قدر الوسع، كنا نتمنى لو أبلغونا قبل الرحلة.

- نأسف من جديد لتحركهم بلا استئذان! غير أني لا أعتقد أن في هذا مسوغا كافيًا لتركهم للموت.

حذره رئيسه المباشر بحزم:

- يريدونها جنازة ليشبعوها لطما، مواقع التواصل الاجتماعي مقلوبة رأسا على عقب، ولن يدخروا وسعا في تحميلنا المسؤولية كاملة.

لا سماح بأي خطأ من أي نوع، نحتاج لصورة كاملة، معلومات شديدة الحسم تمكننا من صياغة موقف متماسك، لا مشكلات، لا صدام!

اختاروه لأنه أقدرهم على التحكم في أعصابه، والخروج من

الكارثة بأقل خسائر قدر الإمكان، والآن، يصر هذا الطبيب المتعجرف على تحويل الأمر إلى صراع.

سيشكل عبئا حقيقيا هذه الليلة.

لو قدر لخالد متابعة مواقع التواصل في هذا الوقت لصعق!

الموجة عاتية، ولا بد من انحناءة مسالمة لبعض الوقت.

- أتصور أنك متفهم، لا نتحمل المسؤولية بذلك القدر الذي تحاول تصويره، أنت تعلم طبيعة المنطقة والإمكانات المتاحة!

- الإمكانات؟ إمكانات بلد باكمله بين أصابعكم تحركونها كيف شئتم!

- نبذل جهدنا قدر الوسع كما أخبرتك! حياتنا فداء لأي مصري...

بتر كلماته إذ لمح ابتسامة سخرية بدأت في التشكل على محيا حازم.

- هل عندك شك في ما أقول؟ هل تتصور أننا ننتظر خبر وفاتهم مثلا؟

- حاشا!

تمالك خالد أعصابه مرته الألف هذه الليلة، تنتظره ألف مثلها إن عد نفسه متفائلا!

- أعتقد أنك تتحمل قدرا من المسؤولية الآن! هل سينجو هذا الفتى؟

أراد إضافة الطابع الرسمي على سؤاله.

- إن أرادت القيادة السياسية ذلك، فتلك مشيئتهم!

«اللعنة! أي شيطان لعين دفعه لتلك المواجهة؟ ثم يأمرونه

بالتعقـل؟ أي ثقـة تلـك التـي يتحـدث بهـا هـذا الطبيـب؟».

ود لـو لكمـه، لـو حطـم صلفـه وكـبره، يريـد أن يخلـص إلى تقريـر مفصـل، الحالـة الطبيـة للأحيـاء وأسـباب وفـاة الموتى!

هل كانت المسارعة للنجدة لتشكل فارقا؟

معلومات دقيقة يطلب، رقم في تقرير وانتهى الأمر.

لكن عيني حازم تنبئانه بأن ليلة طويلة تنتظر.

-٢-

بـدأ الأمـر حـين سـعى طـلاب الفرقـة النهائيـة بكليـة الصيدلـة إلى إدمـاج دورة تدريبيـة لباسـم مـراد، ضمـن فعاليـات التخـرج.

باســم مــراد، اســم أشــعل «فيســبوك»، يعرفــه كل الصيادلــة الفاعلــون عــلى هــذا الموقــع.

متخـرج في كليـة الصيدلـة بالجامعـة ذاتهـا التـي تحمـل شـعارًا عـلى هيئـة الخـازوق، منـذ عـدة سـنوات مضـت.

هــو ذاتــه الــذي وقــف كســيرا أمــام عميــد قــاسٍ يخــبره بحيــاد أن لا تراجـع في قـرار عـدم اختيـاره كمعيـد، رغـم تفوقـه الباهـر مـضرب الأمثـال، مـع انقضـاء السـنوات، يقـرر طـلاب ذات الكليـة اسـتضافته هنـا، وفي ذات المـدرج الـذي تمنـى أن يخطـوه محـاضرا يومـا.

اليـوم، رغـم أنـف كهنـة الأقسـام العتيقـة، الذيـن اكتفـوا بمتابعـة الكارثـة كـما أسـموها.

فباســم الــذي وقــع عليــه الاختيــار لم يتحصــل عــلى أي درجــة علميــة فيــما بعــد البكالوريــوس!

الموجـة عاتيـة، أحـداث ينايـر القريبـة تـزكي حماسـة الطـلاب، وتجعـل معارضتهـم فعـلا متهـورا وجنونيـا.

التجهيـزات محكمـة. تناغـم مريـب بـين اتحـاد الطـلاب والأسر الفاعلـة ينبـئ بحـدث أسـطوري.

وبالطبـع مـع دعـم لا محـدود لطـلاب الفرقـة النهائيـة تحديـدا،

احتفـالا بتخـرج وشـيك.

واشــتعلت الأجــواء إذ أعلــن المحــاضر الشــاب، عــبر صفحتــه الشـخصية عـلى فيسـبوك، عـن فخـره الشـديد بالعـودة إلى كليتـه القديمـة محـاضرا، وأشـار بخبـث إلى دعـوة مذيلـة بتوقيـع عميـد الكليـة شـخصيا موجهـة لـه، وإن لم يـشر إلى كونهـا شرطـا وحيـدا اشــترطه للموافقــة عــلى الحضــور، بــل وأشــار بمــرح إلى أملــه أن يلتقـط صـورة «سـيلفي» بصحبـة العميـد، مـع أول أيـام الـدورة التدريبيــة.

-٣-

الغـروب محمـل بالشـجن، يحبـه الحالمـون والعشـاق، يـرون فيـه أمـلا بليلـة هانئـة، وبـشرى بغـد يعـد بالوصـال.
بينما يخشاه أولئك الذين يخافون الليل.

-٤-

أرخى الليل سدله، الصمت غلف المكان، ومن بعيد تعالى صوت حركة دوؤب لقطار ليل سريع، تناغمت حركته مع عقارب ساعة باسم الكلاسيكية، من علامة كاسيو التجارية، هدية جده المحببة.

يجري باسم مقارنة شديدة البدائية بين القطار والحياة.

لا مقام دائما هنا، فقط تعاقب بين المحطات.

يبصر راكبا جديدا يعاين المكان بعينين ملؤهما الحماس.

متململ هناك يبدو أنه قطع أكثر من محطة، حد أن حفظ أغلب الموجودات.

غير أن لو قدر لحياة باسم أن تتشابه مع قطار فحتما لن تكون كقطارات الدرجة الأولى تلك.

لربما كانت أقرب لقطارات الدرجة المميزة التي اعتاد ارتيادها طالبا جامعيا ينتمي إلى إحدى الأسر المتوسطة.

اعتاد السفر آخر الأسبوع ليلتقي أهله، بعد أيام دراسة شاقة قضاها بين المحاضرات والدروس المعملية، والاستذكار في ليالي الشتاء الباردة.

استذكار اندمج فيه بالكلية حد أن ذاب.

استذكار استعبده فاستلذ الاستعباد.

وعلى الرغم من سفره اليوم عبر قطارات الدرجة الأولى، فلا تزال ذكرى القطار المميز (أو الميزو كما كان يسميه) تلح عليه.

هنـاك حيـث يطالعـك ألـف وجـه ووجـه، وكل وجـه يحـكي حكايـة، وجـوه وقحـة تدقـق النظر علهـا تنفـذ إلى أعمـق تفاصيلك.

وكأنمـا مـا كفاهـا مـا اعتمـل في أنفسـها مـن همـوم وأوجـاع وحكايـا.

حكايـات شـتى يجدهـا في الميـزو، رحـلات عمـل، وأخرى للدراسـة، وربمـا للعـلاج، يجمعهـا جميعـا خـط سـكة حديـد وقطـار متأرجـح ودعـوة صادقـة أن تصـل بالسـلامة.

هـذه هـي الطبقـة التـي انتمـى إليهـا واهتـم بهمومهـا في سـابق الأيـام.

عـاد ليتامـل العربـة مـن حولـه حـين هـدأت الأصـوات، وغـط أغلـب الـركاب في نـوم عميـق، في حـين انكفـأ هـو عـلى حاسـوبه النقـال لينتقـل إلى عالمـه الافـتراضي ملقيـا نظـرة لاإراديـة عـلى مقعـده المجـاور الفـارغ، شـاعرا بغبطـة إثـر فقـد رفيـق طريـق مزعـج متطفـل في أغلـب الأحـوال.

في رحلتـه السـابقة كان جـار مقعـده مـن ذلـك الطـراز، ظـل يحـدق في شاشـته كطفـل يكتشـف الكـون مرتـه الأولى، يراقـب سـكنات باسـم وهمسـاته، ولا يجـد بأسـا في مراقبـة حواراتـه عـبر غـرف المحادثـة الخاصـة، إلى أن ضـج باسـم في الأخـير، فاضطـر إلى مشـاركة أصدقائـه شـطرا مـن شـعوره إزاء نظـرات جـاره المتطفـل الـذي يراقـب كلماتـه الآن!

انهمـك في عالمـه نيـلي اللـون، حـد أن لم يلحـظ توقـف القطـار بإحـدى المحطـات وتوافـد ركاب جـدد، فتـاة في أواخـر العشرينـات توقفـت عنـد مقعـده بحيـاء، وهممـت بمـا يفيـد أن المقعـد

المجـاور لـه يخصهـا.

ارتسـمت ابتسـامة مرحبـة عـلى محيـاه، ومـن ثـم قـام ليسـمح لهـا بالجلـوس، في حـين تأمـل وجههـا بـادي السـمرة المتـشرب مـن طمـي النيـل. عينـان كحيلتـان سـاحرتان لا يعـرف صدقـا أعـن كحل أم عـن طبيعـة متأصلـة فيهـما، يظللهـما حاجبـان كثيفـان نسـبيا، تكتمـل الصـورة بوجنـة ممتلئـة وأنـف اسـتوى عـلى موضعـه، وشـفتين صبغتـا بصبغـة قاتمـة طبعـت عـلى وجههـا جـمالا وسـحرا.

جلـس مـن جديـد واسـتعاد في ذهنـه كيـف بـدا قدهـا رشـيقا مـع امتـلاء، زيهـا محتشـم سـابغ بـرزت منـه كفـان ممتلئتـان وأصابـع بالمثـل.

تأخـر كثـيرا حتـى تذكـر كيـف يكـون غـض البـصر، وكيـف أن نظرتـه الأولى تبعتهـا ثانيـة وثالثـة ورابعـة، دون أن يشـعر بتأنيـب ضمـير، كأنمـا يتأمـل لوحـة بديعـة.

سره في البـدء أنهـا ليسـت بالمتطفلـة ولم تتابـع شاشـته المضـاءة، وإن ضبـط نفسـه متلبسـا بتمنـي العكـس، غـير أنـه بعـد دقائـق كان قـد بـدأ تطفلـه الخـاص، إذ أشـار إلى سـماعات أذنهـا وهـو يقـول بلهجـة متـوددة:

- تحبين منير؟

نزعـت إحـدى السـماعتين وأشـارت بـأن يعيـد مـا قـال، قبـل أن تبتسـم بخجـل:

- آسفة، لم أنتبه إلى أن الصوت عالٍ.

- لا عليكِ، أنا أيضا عاشق لمنير.

كاذب، يعلم ذلك.

لمعت لمحة غابرة من ذكريات شبابه الأول، قبل أن يتذكر استقرار قناعته في الأخير على أن الغناء حرام شرعا!

انتقلت أصابعه تلقائيا نحو مجلد منسي في حاسوبه وهو يشير بفخر:

- أمتلك مجلدًا بأغانيه كاملة كذلك.

بدت على محياها دهشة مشوبة بالفرح، وإن قرأت في عينيه بعض الافتعال، يشعر للمرة الأولى بامتنان حقيقي لمتدرب صيدليته الأخير، الذي رجاه بأن يحتفظ بمجلد لأغاني منير إثر نفاد بطارية حاسوبه، وقد كان.

وعلى الرغم من تحصل الشاب على وديعته في يومه التالي، فإن باسم لسبب ما كان قد احتفظ بنسخة من المجلد.

سألته بعين لامعة إثر نظرة إلى حاسوبه:

- طبيب؟

- صيدلاني، أمتلك صيدليتي الخاصة، وأحاضر في دورات تدريبية للصيادلة. «أضافها بفخر واضح»

- أكاديمي إذن؟ أستاذ جامعي؟ تبدو صغير السن!

- كلا.

دوما ما كان متحفزا تجاه تلك النقطة، يبررها بأن الدراسة الأكاديمية تتطلب مجهودا مضاعفا ومالا يُبذل بلا طائل.

يجيد دوما الدفاع عن فكرة المحاضر الذي ملك خيوط العلم دون دراسة أكاديمية. دائما ما كانت كلماته مقنعة!

فدوراته الطبية لا تحتاج دراسة مكثفة لسنين طوال، قدر ما تستلزم حضورا، وحسن صياغة، والأهم من ذلك كله قدرة

عـلى التواصـل.

ولقـد أجـاد ذلـك كلـه بالقـدر الملائـم لإرضـاء مريديـه مـن طلبـة الصيدلـة، الذيـن يتابعـون خطواتـه بشـغف وحـب.

- اسمي باسم مراد، أتشرف بكِ؟

- نهى فؤاد، مهندسة ديكور.

لِمَ شعر بهذا الطارق العنيف يطرق روحه ويهز كيانه؟

لِمَ شـعر بـأن الاسـم اسـتغرقه؟ انتقـل بـه عـبر ردهـات منسـية في عقلـه ووعيـه واحتـل إدراكـه!

أولم تكن قد نسيت يا باسم؟

حَتّامَ يمزقك الألم وينهشك الأسى؟

يتذكـر إصرار والدتـه عـلى ارتباطـه بحفصـة، ثقتـه الكاملـة في اختيارهـا.

اندماجهـما معـا في تمثيليـة عـن متحابـين مـن النظـرة الأولى، واجتماعهـما تحـت أعـين القـدر، كأنمـا مـا رتـب أهلهـما اللقيـا.

كيـف سـمح باسـم لأحـد (أي أحـد) أن يقـود حياتـه، أن يرتـاد صعابهـا دونـه، أو أن يطـرق سـهولها وأوديتهـا ثـم يصطحبـه في الأخـير إلى المسـتقر؟

لقـد عـاش حياتـه عـلى غـير مـا أراد، بـل لقـد عـاش حيـاة أخـرى غـير تلـك التـي قـد رغـب فيهـا.

تشعب الحديث بينهما إلى تفاصيل عدة.

تلفت لوهلة ليجدها قد غابت مثلما ظهرت.

لم يتذكـر كيـف اصطحبهـا إلى بـاب القطـار حامـلا أمتعتهـا، بـل لقـد غـاب عنـه أن يسـائلها عـن بلدهـا.

رحلت دون أن يلمح اسم المحطة التي غادرت فيها.

غـاب عنـه كيـف فرغـت بطاريـة حاسـوبه، وسـماعة الأذن التـي اقتسـماها، وكيـف صـدح منـير مترنمـا بالنسـيم الـذي يهفـو إلى شـعر محبوبتـه.

كان مـا أدركـه باسـم في الأخـير أن نهـى قـد رحلـت، نهـى أخـرى، غـير تلـك التـي قـد هفـا لهـا قلبـه مـن قبـل.

-٥-

طويـل ليـل نهـى كطـول الشـجن، تثـير نسـماته البـاردة في النفـس المشـاعر والكوامـن، تسـتدعي مـا واراه قيـظ النهـار مـن رغبـات حبيسـة.

تقلبـت نهـى في فراشـها مثلـما تقلبـت أفكارهـا الشـاردة أبـدا طـوال سـنين فائتـة عديـدة.

طـال عمرهـا بطـول حزنهـا، وامتـدت رغباتهـا فـما عـاد يمنعهـا إلا بقايـا حيـاء اسـتتر خجـلا.

اسـتعرت رغباتهـا الحبيسـة تجلـد الظهـر، وتسـلي الجسـد بنـيران محمومـة.

وجه مستدير غائم تركت عليه أوجاع الليل آثارها الكئيبة.

عينـان سـوداوان هائمتـان في عوالمهـما الخاصـة، يظللهـما حاجبـان ارتسـما بعنايـة وحـذق.

ويستندان إلى وجنة ممتئلة ذابلة.

قَـدٌّ رشـيق، غـير أن مـن المبالغـة وصفـه بالرهـف، وجسـد متناسـق وارتـه الحجـب فـما أغنـت مـن طامـع ومـا أغنـى شـيئا مـن رغبـات الليـل والنهـار.

نفـس حائـرة، وجسـد منهـك، وعقـل مكتـظ بـآلاف الأفـكار، وآمـال زائفـة تلـوح في ليـل سرمـدي بـلا انقضـاء.

تداعـب جسـدها الـذي بذلـت لأجلـه الغـالي مـن مسـتحضرات تجميـل وأدوات زينـة وعطـور، وسـط قناعـة اقترحتهـا عـلى عقلهـا

فاستقبلتها ذاتها ممتنة بأنها تفعل كل ذلك لأنها تستحق أن تظل جميلة فاتنة.

حقا لم يعد يطلبها الرجال بذلك الإصرار القديم، إلا أن بابها لا يزال يُطرق بخاطب تلو آخر.

ربما كان جلهم طامعا في صيدليتها الصغيرة أو ميراث قليل ورثته عن والدها الراحل، إلا أنها لا تزال مرغوبة.

تلاحقها الأعين المتفحصة لرجال وشبان يدلفون صيدليتها، وقد أغراهم تأخرها عن الزواج، ولربما رأوا فيها منفلتة متحررة.

سرعة استجابتها لطلبات الصداقة عبر فيسبوك، تواصلها الدائم مع معلقين على آرائها العفوية، اهتمامها بالأنشطة الاجتماعية، دعمها لأحد مرشحي انتخابات الرئاسة في الانتخابات السابقة، بل وعملها بجد لدعم إحدى قوائم انتخابات نقابة الصيادلة الأخيرة.

غير أنها وفي الأخير تود لو جدفت عكس هذا التيار كله، نحو شعور اندس تحت طبقات الروح.

شعور فطري بانها ولدت لتصير أما وزوجة، وإن تظاهرت بالعكس.

هناك في أعماقها تود لو توصلت إلى تكامل ما مع زوج حنون يحتويها ويحميها.

ودت لو جدفت بعيدا عن آرائها وفلسفاتها التي تتعارض مع ما تشعر به الآن.

في فيلم نهى المفضل «فورست جامب» تدعو الطفلة «جيني» الرب بأن تتحول إلى عصفور، لتحلق بعيدا عن هنا.

إضافة إلى توق نهى للحرية، فإن منظور عين الطائر يستهويها، أن تبصر من علٍ.

ماذا لو قدر لها أن تكون عصفورا؟ إذن لأدركت مع التحاقها بالصيدلة كيف سيكون الأمر منذ البدء.

طالبة مثابرة دلفت الكلية بعد مذاكرة مضنية في مرحلتها الثانوية، لتصدم بعشرات المصطلحات الإنجليزية، بل واللاتينية كذلك!

أدركت مع مرور الوقت أن النجاح ما يعنيها، فانكفأت على دروسها تحفظها، وتدارسها عن ظهر قلب.

وإن أجادت مع الامتحانات الورقية، كان تعثرها ملحوظا في ما يخص الامتحانات الشفهية.

بالمثابرة والجد اعتمدت طريقة قاسية لحفظ المصطلحات (نطقا) وبعناية من ملامح تفوقها القديم اجتازت امتحاناتها العملية بسهولة، بل وتمكنت في الأخير من تحقيق درجات ممتازة.

لو كانت عصفورا، لربما ما احتاجت إلى الموازنة بين حياتها الحالية واحتياجها المُلِح إلى رفيق درب، يخفف ألم وحدتها ويهون تلك الجراح التي تصطلي بها روحها.

غير أنها لا تتحمل أن تمضي البقية الباقية من حياتها مع أحد الطارقين بابها على استحياء، فتعمد في أحايين كثيرة إلى الاستمتاع بوقتها منفردة.

يستلزم الأمر أن تترك الصيدلية بعض الوقت لمتدربتها الجديدة ميار، ومن ثم تقضي يومين في قلب العاصمة.

فنـدق راقٍ يكلفهـا مبلغـا لا بـأس بـه مـن المـال، وجولـة عـلى القدمـين في أزقـة المدينـة القديمـة، تتوغـل وسـط الزحـام، وترشـف قسـطها مـن الحيـاة ارتشـافا.

ومـن ثـم تعـود إلى الفنـدق لتطالـع روايـة كلاسـيكية مترجمـة مـما تهـوى وتحـب.

تلـح عليهـا والدتهـا بالكـف، مـع تبطـين دعـوة ملحـة بـأن يرزقهـا اللـه «ابـن الحـلال»، دعـوة متأخـرة الاسـتجابة دومـا، أو معطلـة ربمـا!

غـير أن الأم دومـا مـا تعجـز عـن اسـتخدام سـلطاتها تجـاه نهـى؛ التـي تحـررت بالكليـة فـور وفـاة الأب.

ومـع تاخـر سـن زواجهـا بـدا أن الأم قـد تجرعـت ألم فقـدان الـزوج مضاعفـا.

مـن قبـل دلفـت نهـى إلى التحريـر، كانـت أحـداث يناير قريبـة عهـد.

التحريـر يضـج بالـزوار ويخلـو مـن المتظاهريـن في مـرة نـادرة وقتهـا.

بائعـة جائلـون يتسـمون بالوقاحـة، هـذا يـصر عـلى أن تبتـاع علـما، وذاك يلـح عـلى أن يلطـخ وجههـا بالأصبـاغ الرخيصـة الملونـة بعلـم مـصر.

آخـر قـام عـلى حـين غـرة بإلصـاق ملصـق بالعلـم يحـوي إشـارة إلى ذكـرى أحـداث الخامـس والعشريـن مـن يناير، ومـن ثـم طالبها بثمنه !

وغيره يعرض التقاط صورة لها في موضع هنا أو هناك!

ومـن ثـم فـرت مـن السـيرك المنصـوب، وعيناهـا متعلقتـان بمبنـى المتحـف الـذي يلـوح مـن بعيـد.

تلاحقها مضايقات من فتية هنا أو هناك.

فقـد التحريـر رونقـه وألوانـه الزاهيـة التـي اكتسـبها عـبر ثمانيـة عـشر يومـا فاصلـة.

غير أن اسمه قد تحول إلى رمز.

تراهـا تحولـت إلى رمـز بالمثـل؟ رمـز تشـير إليـه الأمهـات ومـن ثـم يتبعـن إشـارتهن بالتحذيـر، تزوجـن وإلا صرتـن مثـل نهـى!

فكرت في ذلك رغما عنها لمرة وهي تتجه إلى محطة المترو.

تعلمـت وبالطريقـة الصعبـة كيـف تزيـح أعبـاء اجتماعيـة عـن كاهلهـا.

تحـاول قـدر الوسـع أن تحتفـظ، في ركـن قـصي مـن روحهـا، بطاقـة الحـب تجـاه العـالم بتفصيلاتـه المتعـددة.

يطرقها الألم، فحبها الوحيد كان لسبب مماثل، ما رأته في روح باسـم مـن أرض عطـشى للـري بالحنـان.

إدراكها أنها قد امتلكت مع سنيّ عمرها ما يروي ظمأه.

ما لمسته في روحه من ثورة مكبوتة تجاه العالم بأسره.

شـعرت منـذ اللحظـة الأولى أن بداخلهـا مـا يجـبر كـسره الداخـلي تجـاه الكـون، استشـفت فرحـه الطفـولي بهـا، تكـسّر خجلـه رويـدا رويـدا إزاء حضورهـا.

تؤمـن نهـى بأنهـم، أي الرجـال، أطفـال صغـار وإن طـال بهـم العمـر؛ بحاجـة ملحـة ودائمـة إلى قـدر مـن الاحتـواء.

أطفـال يجيـدون التظاهـر بالقـوة والخطـورة أيضًـا، غـير أنهـم وفي

النهاية بحاجة إلى حضن ومستقر، حضن يهدهد ويتحمل عن طيب خاطر زلاتهم وهفواتهم بقلب حانٍ محب.

تراها لهذا تملكت روحه؟

لم تسع لهذا منذ البدء، غير أن هذا ما حدث، أدركت أيضا أنه يحب نفسه في حضورها، وهذا هو جوهر الحب وفق مفهومها، ولقد أدركت أنها توصلت في الأخير لمصير ذاتها أيضًا، متنفسا لعطائها ومستنفذا شبقا لدفئها البشري.

انتزعها صوت قريب من تأملاتها، تحرش لفظي فج اخترق أذنها، تسمرت.

ترى الشر في عينيه، غير أن إلى جواره استقر الخوف.

استبد بها الغضب، ها قد صارت غرضا لأحد هوام الطريق.

ارتفع صوتها وتعالى سبابها الواهن.

كان ذلك حين بدأ الناس في التجمهر، ولدهشتها قد انهال عليها التوبيخ!

بل إن إحدى الشمطاوات قد تلمظت لتلوم وقاحة بنات هذه الأيام. في الأخير كان الجميع قد تناسى من المذنب وانهالوا على جسدها بألسنة ثقال.

شعرت بالانتهاك! ذاقت علقمه، ومع صوت لائم جديد كانت قد انفجرت كبركان صاخب هادر.

بحركة هستيرية مجنونة (أو عاقلة تمام التعقل) أسقطت المتحرش المذهول أرضا قبيل أن تركله ركلة ثائرة بحذائها الدقيق، وهي تشاهد بغل وجهه المتفجر بالدماء.

أدهشها ما ألم به من ضعف وجبن، تساءلت إن كانوا جميعا

بهـذا الخور؟

أم أن قوتها المفاجئة قد أورثته ضعفا وخزلانا؟

أصرت على استدعاء الشرطة.

العجيـب أن النـاس حـين أدركـوا، أدركـوا أن فتـاة تـضرب رجـلا، بـلا أدنى حيـاء مـن أن يمنحـوه صفـة الرجولـة، وحـين فعلـوا قامـوا بإفلاتـه.

أبـصرت نهـى أعـين النسـوة مـن حولهـا، وتمالكـت نفسـها أن تنهـار في البـكاء.

خذلان امرأة مثلها قاتل!

لمَ يقبلـن الهـوان؟ لم ينزويـن في ركـن قـصي ويقبلـن الـتردي بنفـس راضيـة.

كانـت قـد أسـلمت قدميهـا للريـح وفـرت، وسـؤال يلـح عليهـا، لمَ يـصررن عـلى اعتبـار أنوثتهـن عيبـا وعـارا؟

تتذكـر جـارة صيدليتهـا التـي تـصر عـلى ملاحقتهـا بنظـرات خبيثـة، لا تنجـح نهـى أبـدا في الإمسـاك بطرفهـا.

اعتـادت تلـك الجـارة عـلى شراء فوطهـا الصحيـة مـن الصيدليـة في حقيبـة بلاسـتيك سـوداء، وتـصر عـلى ذلـك احـترازا مـن حملهـا «هكـذا».

تتذكـر يـوم دلـف ابـن الجـارة الصغـير إلى الصيدليـة بورقـة خُـط عليهـا، بخـط بالـغ السـوء، اسـم ماركـة الفـوط الصحيـة، في حـين خُـط إلى جوارهـا بخـط شـديد الوضـوح «حقيبـة سـوداء».

ولمـا كانـت الحقائـب السـوداء قـد نفـدت يومهـا، فقـد عمـدت نهـى إلى لـف العبـوة في إحـدى أوراق الجرائـد، ومـن ثـم إيداعهـا

حقيبـة شـفافة عاديـة.

ذكرها الأمر كله بالكفن، فابتسمت ابتسامة بائسة.

ومـا أن غـادر الطفـل حتـى التفـت إلى أعـلى البنايـة حيـث الأم المنتظـرة هنـاك فيـما يبـدو، وبـدأ بفـك الأكفـان «لفافـات الجرائـد المتشـابكة»ولوح أمـام الأم المذهولـة بـبراءة طفوليـة:

- هل هذا هو النوع نفسه يا أمي؟!

تذكـرت نهـى، ومـن ثـم غالبـت ضحكتهـا، قبـل أن تدلـف إلى أحـد المطاعـم الأمريكيـة للوجبـات السريعـة.

قارنـت بـين نظـرات المتجمهريـن اللامباليـة حـين تعرضـت للتحـرش، ونظـرات التطفـل التـي طالمـا لاحقتهـا وهـي بصحبـة باسـم، قبيـل أن تتسـاءل إن كان بوسـعها التحليـق كعصفـور بعيـدا عـن هنـا؟

-٦-

الأبيـض يغلفـه، الـبرد يحيـط بـه، عينـاه تقاومـان بغيـة التحـرر، وعقلـه يعـود للذكـرى.

-٧-

«اكتنفهم الليل كئيبا مظلما، أرخى عليهم سدله، وأتوه فرادى، يحوي كل بين جنبيه خوفا دفينا مما تحمله اللحظة المقبلة من حياته، أو لربما تعني انقضاء الحياة!»

الليل مظلم، خانق، يغلف الوجود بحضور كئيب، ماجن هو، يفعل الأفاعيل في نفوس قلقة مرتابة، يستدعي بدأب خوفنا الفطري البهيمي، خوفا يحتل مكانته بتراثنا البشري عبر أجيال وآباد.

خوفا لا بد أنه قد صاحب رجل الكهف في رحلته الأولى لاستكشاف الظلمات.

خوفا يستحضر صورته الأولية البكر، ويتأهب لزلزلة كيان أول ذي أمل.

- سرعان ما تهدأ العاصفة، وسيكون بإمكاننا العودة.

أرادها باسم هادئة مطمئنة، فأتت حائرة تتخبط في طريقها عبر آذان متوجسة من الأساس.

شق صوته المكان، محاولا التغلب على أصوات عاصفة غلفت الوجوه، مستحضرا صورته كقائد لمجموعة، على أقل القليل هو أكبرهم سنا.

كم يتوق لدفء فراش حفصة هذه الليلة!

كم يتوق لاحتساء قهوتها العربية التي يهز عبقها المنعش كيانه، جسدها المتألق في ليلة أرادتها دافئة فكانت مثلما

أرادت.

«لم لا نرى الأشياء على حقيقتها إلا حين نبتعد؟!»

لكن باسم كان قد ابتعد كثيرا هذه المرة، ابتعد بما لا يكفل له عودة مريحة، بل ربما بما لا يكفل له عودة من الأساس!

نحيب الفتيات تعالى، بينما يقلب يحيى عينيه في الوجوه من حوله، يتمنى صادقا أن لو كان ابن الهيثم مخطئا حين قال إن العين لا تشع الضياء.

-٨-

حركة عينيه تدل على الحلم، تتابع الممرضة بشغف، في وجهه حسن لا يليق بالموت. تُفكر.

دوما ما كان يحيى مغويا، حال الصحو وحال المنام، وحال تعلقه بين الموت والحياة أيضًا.

يولع بالأنثى، بالجمال، معاييره الجمالية صارمة، لا يتهاون فيها أبدا، وإن تهاون مرات في ما يخص المعايير العقلية فقط إن كانت الفتاة بارعة الحسن.

يجيد دائما استغلال ما توليه الحياة من زهرتهن بما يطابق مواصفاته، وكأنما كتب له أن يظل ظافرا حتى المنتهى.

أسس لمعاييره وأصَّل وفق امتحاناته واضعا قواعد كقواعد النجاح فيها.

فوجه الفتاة هو مدار الأمر كله.

امتحان نظري يستدعي حدا أدنى من القبول، وإلا حكم عليها بالرسوب دون التفات لباقي التفاصيل.

جسدها هو شطر الامتحان العملي الذي يدعم النجاح ويرسخه تفوقا حال اللقا.

والامتحان الشفهي شر لا بد منه لاختبار العقل، اختبار شكلي يرمم الخلل أو يجبر مواطن الضعف.

يتذكر يوم أنهى يومه الدراسي الطويل، ومن ثم دلف مرهقا إلى أحد المطاعم لتناول غدائه على عجل.

يومها لفت نظره شريكان على الطاولة المجاورة، «خطيبان على الأرجح»

فتى تقليدي الملامح، أسمر، نحيل، من طراز متشكك. لم تكن الفتاة بادية الحسن غير أنها تفوقه جمالا.

نموذج شديد الشيوع من الارتباط التقليدي بين اثنين متفاوتين على مستوى الشكل.

تفاوت يدركه الخطيب وينقر عقله باستمرار، فيتعامل مع مخطوبته دوما من منطق الظفر!

يستعين بنظرات حذرة تجاه هذا الوسيم الذي أنهكه الجوع فانقض على وجبته يلتهمها، في إنجاز وسرعة، متغافلا عن نظرات مفادها «أعلم أنك تحسدني على فتاتي طول الوقت»

حين بدأ الشعور بالشبع يكتمل لدى يحيى كان قدر قرر ممارسة لعبة نفسية خبيثة قاسية.

نظرة حالمة متأملة صوب الشارع الذي يقع خلف الفتى ستوحي بالكثير.

وكطبيعة الأشياء انتقل الترصد إلى الفتاة فبدأت تتابع يحيى بنظرات أنثوية محنكة.

التفاتات لم تخطئها عينا الخطيب المتربص بيحيى المتابع للشارع بثقة لص فشلت كل التحريات في إثبات جريمته.

تحول وقت الخطيب، الذي كان من المفترض أنه وقت مرح يقضيه بصحبة خطيبة جميلة ظفر بها، إلى جلسة على جمرات من نار.

بينما أدرك يحيى تماما أن حياة الفتى ستكون امتدادا لهذه الجلسة.

-٩-

لـو قُـدر لمراقـب أمـين أن يتابـع حيـاة يحيـى، فلربمـا زعـم أمـام جمـع الأطبـاء في ذلـك المستشـفى النـائي أن يحيـى يحـضر لهـم مفاجـأة مـا يغـادر فيهـا فـراش المشـفى، حـال تيقـن الجميـع مـن أنـه لا نجـاة!

الدقائق الأخيرة في أي شيء هي الحاسمة

كـذا يؤمـن يحيـى، يـردد، بـل يتعجـب تعجبـا صادقـا مـن طـراز شـديد الانتشـار مـن مشـجعي كـرة القـدم، ممـن يغـادرون المـكان قبيـل دقائـق المبـاراة الأخـيرة حـال تيقـن خسـارة فريقهـم.

ينـاصر فريقـه «ريـال مدريد»طـوال المبـاراة، يتأمـل اسـتاد سـنتياجو برنابيـو (Santiago Bernabéu Stadium) الإسـباني الفريـد، جمهـور المدرجـات الراقـي، ومـن ثـم يتسـاءل بحرقـة: هـل سـقطت الاندلـس حقـا؟ أم أفلـت الإسـبان أبنـاء المحظوظـة؟

نماذج انتصار اللحظات الأخيرة شديدة الشيوع. يردد.

فقط المثابرة وبعض الروح القتالية هو ما يستلزمه الأمر.

في ألعـاب «البـلاي ستيشـن»يدرك كل الرفـاق أن يحيـى هـو نجـم اللحظـات الأخيرة.

هدف شبه محسوم سيحرزه فيها.

اللدغة القاتلة التي يمنحها لخصومه.

«الهدية»كما يسميها بتشفٍ. ولقد تلقاها الكل وبلا استثناء.

في ما يتعلق بقدره، فإن حمى اللحظات الأخيرة حاضرة أيضًا.

يتذكر يوم ظل لساعات هائما على وجهه في انتظار نتيجة الثانوية العامة.

الصيدلة حلمه. لم يتخيل نفسه إلا صيدليا، كان يردد بثقة:

- أريد الصيدلة وحسب، هل هذا قليل على من هو مثلي؟

لكن لدغة الثانوية أصابته.

كان مجموعه، خلافا للمتوقع، لا يضمن له الصيدلة وفق تنسيقات سنين فائتة.

اكتئب وتردى وذبل.

نُحتت ابتسامة بائسة كئيبة على محياه. ولقد تخيل أن مستقبله قد انتهى.

لم يكن يحيى ضعيفا بحال، إلا أن الموجة كانت قاسية، الموجة عاتية هذه المرة.

كان ممتلكا لثقة داخلية كاسحة، ويؤمن بأنْ سيحقق حلمه مهما حدث.

نادى الصيدلة فلبت، واستجابت له، في تنسيق ظل ذكرى لسعادة الطالع.

انخفض تنسيق الصيدلة يومها للمرة الأولى منذ زمن، والتحق بها يحيى!

يتذكر اليوم تلك الذكرى المنقضية فيسعد.

يومها كان قد سهر حتى الصباح. كانت ليلة رمضانية فردية.

وقد التحق بالاعتكاف يومها يصلي ويدعو (كان حينها محتفظا ببقية باقية من تدين).

أُتخمت عيناه بالسهر، اتصال هاتفي من صديق يرجح

ظهـور نتيجـة التنسـيق.

لم يكـن قـد امتلـك شـبكة إنترنـت منزليـة بعـد، فهـام في الطرقات، كان الوقـت باكـرا، لم تصـل جرائـد الصبـاح بعد.

مراكـز الإنترنـت لم تفتـح أبوابهـا، انغلـق ذهنـه إلى أن تذكـر أن هاتفـه النقـال الجديـد ربمـا يتصـل بالشـبكة العنكبوتيـة.

في منتصـف الشـارع بحـث عـن تنسـيقه، وفوجـئ بـأن الهاتـف متصـل.

حقـا كانـت الصـورة غـير واضحـة بشـكل كامـل، بعـض الأحـرف مشوشـة، لم تكـن تقنيـات الهواتـف الذكيـة قـد غـزت الأسـواق بعـد، إلا أن الحـد الأدنى للصيدلـة كان جليـا ولقـد تخطـاه، هـل يبالـغ إن قـال إنـه قـد رقـص جـذلا في الشـارع وفي نهـار رمضـان؟

يومهـا كانـت الحيـاة بهيجـة، مـا تتمنـاه تلقـاه ببعـض الجهـد والإصرار.

توقع أن تظل الحياة على نفس الوجه.

إصرار وتحدٍ يعقبه نجاح.

لم يتوقع قط أن يتغلب عليه الملل ويهزمه.

مرات قليلة كان يضعف ويحضر محاضرة ما.

يطـل عـلى المـدرج إطلالتـه عـلى العـالم، بحـر تتلاطـم أمواجـه، يتأمـل وجهـا هادئـا خجـولا.

موجـة صافيـة شـديدة الصخـب، موجـة مترصـدة ملـول، مـا يطغـى هـو موجـة لزجـة، شـديدة اللزوجـة.

متباينـة الأشـكال والألـوان، لهـا قـدرة أسـطورية عـلى التشـكل والتنـوع والتبايـن.

إحداهـن كانـت تبـدي آراءهـا التافهـة بصخـب كأنهـا محـور الكـون ومـداره.

وكأنها سر الوجود، كيانه الأوحد.

معتمـدة عـلى ضيـق زيهـا الـذي يطـرح تسـاؤلا ملحـا متعاقبـا مـع انبهـار الأنفـاس، عـن كيـف ارتدتـه؟

آخـر صامـت، مُكتـف بلزوجـة النظـرات، وأخـرى تكتفـي بظـلال ابتسـامة عـلى وجههـا تضمـر الكراهيـة، يتأمـل بنـات دفعتـه، ويـردد مقولتـه الأثـيرة متصنعـا العمـق:

«فقـدت بناتنـا الأنوثـة في حـادث مريـع، عشـية فقـد شـبابنا لفـن الرجولة»

لم يجـزم يومـا بأنـه يحـب أبنـاء دفعتـه، أولئـك الذيـن دفعـوا بـه إلى اتحـاد الطـلاب ابتـداء.

يجلـس بينهـم فيتخيـل نفسـه محاطـا بـزلال البيـض، لـن تكـون رائـق الحيـاة بـين زلال البيـض!

غـير أنـه يوقـن دومـا بـأن كل سـماجة لا بـد أن خلفهـا، عقـدة، ألمـا، أو عمقـا...

يتأمل المحاضر، يحاول تتبع كلماته قبيل أن يغلبه الملل.

الاسـتغراق في الملـل، الإصرار عليـه، والنـدم في الأخـير عـلى مغـادرة فراشـه الدافئ.

ويبدأ في خط كلمات عبثية بما يناسب عبثية المكان.

العبث هو ما يسيطر على أوقات المذاكرة.

الامتحانات؟ «عفريته»الخاص، الذي يخشاه فيتبدى له.

تلـح ذكـرى الامتحانـات عـلى ذهنـه في أي وقـت وأي مـكان،

فتفسد بهجته، فضميره يعذبه ولا يرتاح. كان قد اعتاد اللحظات الأخيرة.

أعصابه مشدودة كقوس.

مع انقضاء الامتحانات العملية ينعقد سوق المذاكرة وتروج تجارة ما يلزمها، ملازم وأوراق وأقلام وغيرها.

يتبدل وجهه حينها إلى وجه كالح كئيب.

ينطلق إلى امتحاناته منتشيا بالسكر وقد أصابته لوثة الامتحان.

وقتها تصبح أقل دعابة مدعاة لهستيريا ضحك طويل.

يشعر بأنه متعاط للمخدرات في تلك الفترة، يحاول بإصرار ودأب أن يحشو المعلومات حشوا في لحظاته الأخيرة.

ويبدأ مصارعة رومانية شديدة الوطأة مع أوراق الامتحان.

اعتاد أن أي امتحان في كلية الصيدلة يستلزم جهدا كتابيا يفوق حصيلة جهد الكاتب المصري الجالس القرفصاء منذ آلاف السنين (في حالة إذا كتب!)

ينتهي الوقت وقد استهلكه الجهد، قتله وأرداه.

يسلم ورقته وهو حرفيا لا يقوى على القيام.

سهر الليلة ماضية، صعوبة المادة، غموض الأسئلة، وقد صار طقسا يقارب الطقوس الدينية في الاعتياد.

ينطلق إلى الرفاق حيث يتبادلون ابتسامات بلهاء لم يفهم معناها بعد، إلا أنها حتما تشير إلى تكرار ما حدث كل مرة.

حقنة شرجية لا بد من تعاطيها في الموعد، وفي الموضع ذاته.

ينتقل تلقائيا إلى معمعة الامتحانات الشفهية، حيث قضي

الأمـر وانتهـى.

زحـام شـديد عـلى بـاب الممتحـن كيـوم الحـشر، سـائلين العـرض عـلى السـؤال.

ينتهـي الامتحـان في شريعـة يحيـى بانقضـاء زمـن الامتحـان الورقـي، الامتحـان الشـفهي تحصيـل حاصـل، ضربـة حـظ!

تدافـع الأجسـاد المتعرقـة. يقـترن ذلـك الموضـع في ذهنـه بالروائح المقـززة، غالبـا مـا يفضـل الامتحـان بصحبـة ذات المجموعـة، لديـه أولويـات، فـلا يعـاني مـن اختيـار رفـاق امتحانـه الشـفهي.

يعلـم مـن يختـار إن طلـب الممتحـن طالبـين، أو ثلاثـة أو حتـى أربعـة.

يختارهـم تبعـا لقربهـم الشـخصي منـه ووفقـا لمسـتواهم التحصيـلي.

فليـس لـه قِبـل بمشـاركة الامتحـان بصحبـة أحـد السـخفاء ممـن يسـتحضرون روح المدرسـة الابتدائيـة، ويسـارعون إلى رفـع أصابعهم لـدى كل سـؤال.

يقـاوم رغبتـه في رفـع إصبـع مشـابه في وجههـم، في إشـارة مركـزة وذات معنـى!

ولـن يحتمـل إن كان رفيقـه مـن هـذا النـوع الـذي شـاع عنـه مقولتـه لأحـد الممتحنـين:

- لقد أجبت أفضل من كل هؤلاء.

في إشارة إلى زملائه، بغية توريطهم.

وليـس لـه قبـل بمشـاركة أحـد أوائـل الدفعـة، ممـن يدخلـون الامتحـان ليديـروا شريطـا محفوظـا عملـوا بجـد لتحضـيره، لأجـل

يـوم كهـذا.

مـا أن ينتهـي الامتحـان حتـى تتبخـر أحـلام الانطـلاق والعبـث، التـي حـضّر لهـا طويـلا، جسـده مرهـق قـد انتهكتـه الخطـوب، وليـس بوسـعه سـوى أن يدلـف إلى المكتبـة لاشـتراء مـا اسـتجد مـن أوراق المـادة التاليـة، ومـن ثـم التسـكع في الطريـق، ولربمـا دلـف إلى مطعـم لتنـاول طعامـه كديناصـور بـري لم يـأكل منـذ قـرن.

اليوم التالي دوما ما كان مثيرا ومميزا.

يعلـم يقينـا أنْ سيسـتيقظ في وقـت مـن اليـوم عجبـا، يتسـاءل لوهلـة: في أي مـكان هـو؟

يشعر كأنما أثقلته عصا ثقيلة طوال ليلته ماضية.

مـع بـدء دراسـته في الكليـة كان ضميره متيقظـا، يـصر عـلى البدء في المذاكـرة في هـذا اليـوم، يعارضـه عقلـه مثلـما لم يفعـل يوما.

فالعقل يدرك فيما يبدو كيف يحفظ اتزانه.

غـير أنـه يحـاول، مـا اسـتطاع إلى ذلـك سـبيلا، أن يتحصـل عـلى أي قـدر مـن المعلومـات.

كثيرا ما اضطر إلى إعادة الاستذكار يومه التالي.

مـع تعاقـب الامتحانـات انتقـل ضمـيره التحصيـلي إلى رحمـة اللـه، كان يـصر وبـكل قسـوة وحسـم أن يهـدر اليـوم كلـه في أي شيء وكل شيء ويـردد دومـا:

- اليوم خمر ونساء!

لكنه يدرك أي ذنب جنته يداه مع بدء يوم جديد.

واستعراض مادته بعقل استعاد صفاءه.

مـع تتابـع الامتحانـات تبـدأ أعـراض «last week of exams

syndrome»في الظهـور.

متلازمـة آخـر أسـابيع الامتحانـات أو متلازمـة لويـس اختصـارا. «LWES syndrome»

اكتشـف أنهـا تظهـر مـع شـهر الامتحانـات الأول، ولقـد صنـف أعراضهـا وفـق قواعـد علميـة دقيقـة وملاحظـات دوؤب.

لاحظ ظهور حالات إحباط قد تزيد، وتتضاعف مع الوقت.

ضعف الرغبة في المذاكرة، عدم القدرة على فهم ما يُقرأ.

الـصراخ الشـديد، والشـعور بالضيـاع، وقـد يتطـور الأمـر مـرورا بظهـور رغبـات انتحاريـة.

تتأرجح الشهية، فقد يزيد الوزن ولربما نقص وفقا للظروف!

ولقـد ألهمتـه امتحاناتـه وطبيعـة دراسـته أن يخصـص بحثـا علميـا لدراسـة تلـك الحالـة مسـتقبلا.

جفنـاه يوحيـان بحلـم مـا، والممرضـة هائمـة في تأمـل ملامحـه لا تـزال!

-١٠-

مع أول أيام الدورة التدريبية كانت ميار حاضرة.

تجتاز الدرج بخطوات واثقة، بعينين بنيتين بلون البندق، ملؤهما رهبة.

تحاول اجترار ابتسامة ما لوجه جميل خالٍ من الأصباغ.

مضى زمن طويل على أول يوم لها هنا.

يوم وطأت قدماها كلية الصيدلة عن غير قناعة، دوما ما رغبت في الطب، غير أن يد مصحح أثيم قد أطاحت برغبتها، أم كان شرودا ما دفعها لاستبدال كلمة بأخرى أو رقما بآخر بما يخالف نموذج التصحيح المقدس؟

أدركت تماما كيف أديرت اللعبة، والرهان، رهان دفعت ثمنه كلية لم ترغب فيها. ما أن انخرطت في دراستها وبدأ نضجها في التشكل حتى أدركت مقدار حماقتها، و«تأقلمت».

ها هي في آخر سنواتها الجامعية.

جميلة، وقد أدركت جمالها منذ زمن، مع أول لزج اعترض طريقها مقدما نفسه بصفته طالبا أكبر سنا و«هو في الخدمة»، بل تمادى ليمنحها رقم هاتفه، غير أنها صدته بحسم.

مثقفة، ذكية، تحمل نظرة إلى زميلاتها بأنهن أكثر غباء مما ينبغي، أو بالأحرى يوظفن ذكاءهن في ما يجاري المجتمع ويلائمه.

أما في ما يتعلق بها هي فلقد خرقت قواعد الشرقيين

المقدسة، وقلبت الطاولة مع عريس سنتها الجامعية الثانية، الذي بدا متلهفا للارتباط.

انتبهت إلى تعامله معها «كلقطة» على الرغم من أنه لم يمض أيام على حضوره من بلاد الخليج، محملا بما يكفي من مال للارتباط بصيدلانية المستقبل التي توافقت مع معايير والدته الجمالية.

حدثته ساخرة عن مفهوم التوافق الفكري والثقافي في محاضرة سريعة متسارعة. أي علم تعلمته دفعك إلى أن تلتقي بفتاة للمرة الأولى وتجزم أن توافقا ما قد حدث بينكما؟

أي تفاهم سيجري بعد الخطبة؟ بل قل أي تصنع لتوافق سيتم؟ ليس لك قِبل بالمشاركة في تمثيليات مجتمعية سخيفة!

عصفوراي الملونان اختارا بعضهما بطريقة أكثر إنسانية من جلستنا تلك.

رفضته بحسم وقسوة في ذات الجلسة. بينما فر هو من تلك المجنونة ودروسها الحاسمة التي شكلت رعبا لازمه لفترة!

«يمكن للشرقي تقبل أي شيء إلا أن يرتبط بامرأة ذكية»

كان ذلك مما دونت في دفترها.

«المرأة الذكية وجدت في تلك البقعة من العالم لتثير الإعجاب، ننبهر بكلماتها، بمنطقها، نفغر أفواهنا إعجابا. ومن ثم نندمج في موجة من التصفيق أو السباب، ثم نتزوج بمن تختارها أمهاتنا».

«لا بد للزوج الشرقي أن يكون الأكثر حضورا، الأبعد نظرا، وإلا انقلبت الطاولة على الجميع!»

تراصت سطور دفترها حاملة نظرة شديدة الصخب والثورة تجاه العالم!

تتأمل كليتها من حولها!

مضى زمن طويل على اليوم الأول.

يوم طرقت أبواب الكلية بشعور هجين من قلق وفخر.

«بالطو»أنيق ناصع البياض. قضت وقتا في كيه ليلة الأمس التي غاب فيها النوم عن عينيها الرقيقتين، وتدافعت الأفكار عن كيف يكون يوم دراستها الأول؟

كيف ستكون كليتها؟ تساءلت رغم أن والدها اصطحبها لها قبلا.

لا يزال لليوم الأول رهبته مع كل شيء.

كيف ستكون محاضرتها الأولى؟ هل سيكون المحاضر شابا وسيما؟ أم كهلا وقورا يقطر العلم من فيه مذابا سائغا شرابه.

أم تراها امرأة عملت بجد لتوازن بين بيتها وأبحاثها القيمة واكتشافاتها المبهرة.

عملت لتكون أهلا لتلك المكانة العلمية الرفيعة.

قطعا لدى المحاضرين حضور طاغٍ، «كاريزما» اكتسبوها من ثقلهم العلمي وخبراتهم الطويلة.

يومها تعرفت إلى سها أول مرة. فتاة تحمل وجها بشوشا، وابتسامة زجاجية، وزيا ملتزما، وحضورا سمحا عذبا كقطرة ندى «متكلفة»!

التصقت بمياز على طول الخط. اهتمام مكثف بها، دروسها، صلاتها! أفكارها أيضًا.

هدايا بسيطة بدءا من أقلام خط عليها عبارات حماسية عن عزة الإسلام، وصولا لأجندة رسم على غلافها صورة بادية الحسن لمسجد قبة الصخرة، وعبارة مقفاة عن المسجد الأقصى والعودة إليه!

في خلط شديد الشيوع بين المسجدين.

راقت تلك الأشياء لميار أول الأمر، فثقافتها تحمل في جانب كبير منها «متعلق بالنشأة» اهتماما لا حد له بحضارة الإسلام.

لاحظت ما أبدته سها من اهتمام بالتاريخ، فتساءلت ببراءة إن كانت قد اطلعت على التاريخ الفرعوني «بغية ترشيح كتب بعينها».

لاحظت تجهم سها، انبراءها للدفاع كأنما تدرأ تهمة!

- من تحدث عن تاريخ فرعوني أصلا؟ إنما أعني التاريخ الإسلامي! ثم إن معرفتي بتاريخ ديني فخر يغني عما سواه!

بدأت التساؤلات تطرق عقل ميار، ببطء وحذر وإصرار.

-١١-

انتبهت من أفكارها لتتأمل بترقب طالب الفرقة الأولى «يرتسم اسم فرقته على وجهه»

حيث تتباطأ سرعته ومن ثم يتوقف ليقرأ أحد الملصقات العتيقة الموجودة هنا منذ عهد «أبقراط».

ومن ثم يتجه لينظر من النافذة نحو الأفق البعيد.

ترى كم منهم مر بذات الموضع وألقى تلك النظرة التي تختلف الحياة بعدها عما قبلها؟

نظرة كاثوليكي أوروبي استيقظ يوما ليكتشف أن القس كان يخادعه طوال سنوات عمره، وأن الأرض كروية تدور في فلكها حول الشمس!

نظرة من تطاير فرحا منذ أيام قلائل حيال معرفته أن قد صار «دكتورا»

ميار الآن، والآن فحسب، قادرة على الحكم بحياد.

إنها تقف على الخط الفاصل بين هنا وهناك.

تغوص في شعور كاسح بأنها لا تنتمي لهذا المكان، وبأن قد حان زمن الرحيل.

شعور ينتابنا في الفترة الفاصلة بين مراحل الحياة المختلفة.

تتذكر الآن كيف كانت ساذجة منذ خمس سنوات!

مع كل هذا الوهن الذي يلف حياتها، لِمَ توقعت أن داخل هذا المكان قد يختلف عن خارجه؟

«لِمَ توقعت أن الانتقال من الثانوية إلى الجامعة سيفرض واقعا جديدا؟

أو يعني الانتقال من حياة الحفظ إلى حياة الفهم والتجربة والإدراك!

لِمَ توقعت أن الوجود بالمعمل يستلزم، بالضرورة، وجود تجارب علمية عظيمة الأثر في صناعة الدواء؟

ولِمَ غاب عن ذهني أن الأمر، أولا وأخيرا، خطوة مبدئية في دراسة أكاديمية جافة نتفوق فيها ونجيدها، وتتراص شهاداتنا فيها جنبا إلى جنب في صورة هرم يعني العدم في سير البشر، وحضارة البشر وتاريخهم؟

بل لِمَ لمْ أوقن منذ الصدمة الأولى بمحاضر متوسط الحضور يمنع التهذيب من وصفه بالدهولة، وبمادة علمية صلبة شديدة الجمود، بأننا لا نزال، وسنظل طويلا، جرحا ملوثا شديد الإيلام يقع في مؤخرة البشرية، ويقتصر دوره على تذكيرها الدائم بدوره المتأصل في حضارتها ونهضتها، مثنيا إياها عن الجلوس ولو قليلا لالتقاط الأنفاس؟»

كذا دونت في دفترها..

-١٢-

ودت سها لو تتبعت ميار أبدًا، في نوع من الملاحقة الدائمة، تصر على اصطحابها في كل حين، تناقش أفكارها، قناعتها، وتحاول استقراءها بلا دأب.

تزج بسخرية مستترة هنا وهناك.

تتساءل بلهجة ساخرة ممطوطة أحيانا، وبود شديد أحيانا أخرى.

تحدثها طوال الوقت عن الإيجابية، تقديم الدعم للناس، أن نحلم بمستقبل أرقى!

أن نحترم المخالف. تراقب ميار تصرفاتها عند الاختلاف فتعجب.

مع قرب الامتحان النصفي بدأت سها في اصطحابها إلى مجموعات شرح يقوم بها طلبة الدفعات الأكبر سنا.

تنعتهم سها بأخواتنا المحترمات، في تورية ما.

تراها تورية مستترة لشيء تعجز عن التصريح به؟ تتساءل ميار.

أم لا ترغب في التصريح به من الأساس؟

مع اتساع رقعة الفتيات اللواتي تعرفت عليهن ميار، عن طريق سها، بدأت الصورة تتضح أكثر، فهن ذاتهن من استقبلن طلاب الفرقة الأولى في اليوم الدراسي الاول لهم، ملوحات بتبعيتهن لتنظيم يميني شهير.

ومـع إجـراء بعـض الأبحـاث مـن خـلال الشـبكة العنكبويتـة، بـدأت الخيـوط تتجمـع في ذهـن ميـار.

كانـت تمـر بعمليـة غسـيل دمـاغ منظمـة يعرفونهـا بالدعـوة الفرديـة.

وبـدأت في تسـجيل خطـوات الدعـوة الفرديـة تلـك، والإشـارة بعلامـة الصحيـح أمـام مـا طُبـق عليهـا!

وراق لهـا في الأخـير أن تلاعـب سـها بـأوراق مكشـوفة للمـرة الأولى!

فبـدأ مـن التقـرب منهـا، إظهـار الـود، الهدايـا، الـشرح، تقديـم العـون بـلا طلـب، كانـت تلـك خطـوات يتبعهـا أفـراد التنظيـم مـع عـشرات سـواها، وفـق عمليـة مدروسـة لا عفويـة مثلـما بـدا لهـا الأمـر.

تصاعـد الأدرينالـين في جسـدها إثـر تذكـر أجـواء الإثـارة التـي صاحبتهـا لـدى قراءتهـا لروايـة شـفرة دافنـشي.

أجـواء الجمعيـات السريـة القديمـة وطـرق الانضـمام إليهـا، غـير أن الأمـر عـلى طريقتـه المصريـة كان مثـيرا للملـل وأقـل إثـارة!

لكـن لِمَ عمـدت سـها للتوريـة منـذ البـدء؟ لِمَ لجـأت لتغليـف الأمـر بعلاقـة إنسـانية راقيـة، كالصداقـة، بغيـة إقناعهـا بمفاهيـم فكريـة أيـا كان فحواهـا؟

- هل تتبعينهن؟

كان سؤال ميار صريحا.

- لِمَ هذا السؤال؟ ما الضرر في أن أتبعهن؟

لم تتصور سها أن تصارحها ميار بتلك البساطة.

- لا أتبعهـن قطعـا! انضمامـي لهـن يزيـدني فخـرا، غـير أن هـذا شرف لا أسـتحقه بعـد.

لم تفهـم ميـار إجابتهـا حـق الفهـم، إن لم تكـن تتبعهـن فلـمَ تريـد منهـا ذلـك؟

وإن كانت كاذبة، فهل تعتبرها صديقة فعلا؟ أم مجرد صيد!

وإن لم تسـتوعب الأمـر برمتـه ولم تلجـأ للتنظـير، فقـد رأت في خلـط الإنسـاني بالفكـري بهـذا الشـكل أمـرا لاأخلاقيـا!

خيـوط العنكبـوت بـدأت في التشـكل، انفضاضهـا عنهـن جريمـة لا تغتفـر، تجديـف صريـح ضـد التيـار، ولربمـا ضـد صريـح الديـن مثلـما لوحـت سـها في تعبـير مـراوغ.

لكن منذ متى وميار تجدف وفقا لأي تيار أصلا؟

-١٣-

منذ الصغر ونظرة ميار للدين متأصلة وعميقة.

تـراه كمنـة مـن اللـه عليهـا، تفتخـر بإسـلامها أيمـا فخـر، تـرى فيـه عـزا.

تتذكر بشيء من الشجن ذكريات طفولتها المتقدمة.

يـوم التحقـت بمدرسـتها الابتدائيـة وأدركـت للمـرة الأولى الاختـلاف العقـدي بصورتـه الأوليـة.

يـوم أن أدركـت أن رفيقـة مقعدهـا، تلـك الفتـاة الرقيقـة التـي أحبتهـا، «مسـيحية».

لم تسـتوعب وقتهـا مدلـول الكلمـة، غـير أنهـا عرضـت عليهـا بـكل بـراءة أن تعتنـق الإسـلام.

بل واقترحت بود أن يصير اسمها «زينب»

- اسم جميل؟ أليس كذلك يا زينب؟

تتذكر رقتها المتعمدة إذ تنطق الاسم بمكر طفولي محبب.

لم يسـتوعب عقلهـا الصغـير أن اسـم مريـم يناسـب المسـلمات كذلـك.

بـل لم تلتفـت إلى كـثرة عـدد «المريمات»المسـلمات اللـواتي يمـلأن الفصـل.

بحكـم قواعـد الترتيـب الأبجـدي لتوزيـع الطـلاب فقـد رافقـت ميـار، عـبر سـنيّ الدراسـة، عـشرات المريمـات.

إلا أن مريـم «المسـيحية» صديقتهـا الأولى ظلـت عـلى مكانتهـا

في قلبهـا.

ولقـد صادفتهـا مـرة أو مرتـين إثـر تلـك الحادثـة في الفنـاء، إذ إنتقلـت لفصـل مجـاور لسـبب لم تدركـه ميـار حينهـا.

تذكرتـا تلـك الأحـداث حـين التقيتـا منـذ مـدة، فمريـم ذاتهـا التحقـت بكليـة قريبـة في ذات الجامعـة، وتبادلتـا يومهـا ضحـكا طويـلا وصادقـا إثـر الذكـرى.

-١٤-

كانت القاعة مكتظة تماما قبيل دقائق من وصول باسم، ما دفع بمیار إلى حجز المقعد المجاور لأجل نهى التي قررت الاشتراك مع ساعات الصباح الأولى.

ما كان هذا ليتم لولا وجود میار بين منظمي الحدث.

الضجيج الأنثوي الصاخب فيما حولها يصيبها بالتوتر.

المؤنث حاضر وبقوة فيما يبدو.

تتلفت حولها، يذكرها الجمع بأول أيامها في مدينتها الجامعية.

المدينة الصاخبة المفعمة بالفتيات اللواتي يذرعن الطرقات صارخات شغوفات بالحياة، مشاهد جديدة لم تعهدها میار وقتها.

الجانب المظلم من القمر.

الفتيات بصورتهن الخام، قبيل مرورهن بعمليات التكرير والتحلية.

أولئك اللواتي تتناثر شعورهن هنا وهناك على فطرتها، بُعيد تقييد ليوم كامل تحت غطاء رأس.

يُعن بعضهن بالمظهر والهندام، فيقمن بتصفيف يومي يضمن لهن مظهرا مقبولا.

في حين تبدو الأخريات شعثات كجندي فار من جيوش هانيبال.

هنا تنطلق الفتيات بأصواتهن الصاخبة كسرينة إنذار،

وضحكات كيفما اتفق، ضاربات بعرض الحائط تلك الصورة التي تفنن في إبداعها الأدباء والشعراء لبنات حواء.

أغانيهن المرحة التي تكثر وسطها أغان شعبية خليعة، يبدين امتعاضهن منها في ظاهر القول، ويتغنين بها إذا ما دلفن إلى مملكتهن الخاصة.

وعلى الرغم من أن ميار إحداهن في الأول والأخير، فقد سرها أن تدلف إلى تلك المملكة الخاصة من بوابتها الخلفية.

هنا تساقط الأقنعة!

أي قناع بشري يصمد لأربع وعشرين ساعة؟

وتراه صمد حيال الاستيقاظ، فهل يصمد حين الغفلة إذ يتقلبن في الأسرة؟ ولربما صدر عن بعضهن معزوفات مما لا يستحب سماعه.

أم هل يصمد حال التدافع الصباحي على دورات المياه ليلحقن بيومهن الدراسي؟

انتبهت ميار بغتة إلى مدخل المدرج، فهناك كانت نهى في أجمل مشهد تراها عليه منذ عرفتها!

لم تقدر ميار حجم الثقل الملاحق لخطوات نهى.

حدثتها كثيرا عن الدورة التدريبية الصيدلية، عرضت عليها الحضور، ولما أدركت روعة الفكرة زادت في الإلحاح.

الدورة ستمتد لأيام قلائل، ليست باهظة الثمن، أجواء احتفالية، يحضرون لمفاجأة ما في الأيام الأخيرة منها.

محاضر مميز فرض اسمه وجوده في السنوات الأخيرة.

اهتزت نهى كعصفور مبتل.

يطرقها الاسم من جديد، يخفق قلبها مثلما خفق من سنوات «بالضبط»

ذاك الذي سكن وجدانها منذ أمد، وما زال له في القلب مستقر.

الذي رحل تاركا روحها وكيانها صحراء جدباء قاحلة.

تنفض الأفكار الملحة بإصرار ودأب.

كلا.

لم تمض تلك السنون عبثا، محاولاتها المستميتة للنسيان لم تنفضّ ليطرقها الحنين حال ذكر اسمه.

تعيد التفكير، ها هو قد نجح في حياته لا كما راهنت.

لم تتمن فشله صادقة.

تعجبت: كيف لم تصادف اسمه مع كل تلك السنوات؟

ولا حتى حسابه الشخصي على فيسبوك!

طلبت حسابه من ميار وقد أدركت أن ساعتها المقبلة ستحمل الكثير من الشجن.

-١٥-

تتأمل جسدها في قميص منزلي نيلي اللون.
بنطال متوسط الطول يكشف عن ثلث ساقها على الأقل.
إنها بحاجة إلى إنقاص عدة كيلوجرامات من وزنها، كذلك فكرت قبل أن تدلف إلى فراشها الوثير، تحكم قبضتها على قهوتها الساخنة، ومن ثم تنساب الموسيقى الهادئة عبر الغرفة، منبعثة من حاسوبها النقال «لاب توب»
تتفادى بكسل إتمام رواية مشوقة.
ومن ثم تدلف إلى «فيسبوك» حيث جنتها المشتهاة المحرمة.
تدور دائرة تحميل الصفحة، في حين يتراقص قلبها تحفزا وشوقا.
تتبدى صورته مثلما تخيلت.
يقف ليحاضر راسما أعذب ابتساماته.
تتابع كلماته، عباراته البراقة.
كعادته دوما يعمد إلى تعويض خوائه الداخلي بادِّعاء العمق.
هي خير من تدركه، تحفظ سبله، تراقب في صمت.
يخفق قلبها في عنف، اشتقت إليك يا باسم.
شدما اشتقت إليك!

-١٦-

لم تكن نهى لتغالب رغبتها في رؤيته.

على مر ساعات طوال قضتها على حسابه الشخصي تتابع كل تحركاته تقريبا، مراقبة صامتة خجول، تقرأ كلماته مرة فثانية، ومن ثم تتخيله وهو ينطقها، تستحضره وهو يقرأ التعليقات ومن ثم تحيا في جنة من الأحلام.

أحلام محلقة ترفرف بها نحو النجوم.

أحلام أخرى من طراز عابث مجنون، لم تتوقع قط أن تحياها أو أن توجد في مخيلتها.

مرت الساعات سراعا، لم تدر بنفسها إلا وهي تهاتف ميار، تتسمع صوتها الناعس طالبة حجز مكان لها في دورة الغد بلهفة.

- لا مشكلة، سأبذل جهدي، بإمكانك الحضور صباح الغد.

تتسارع نبضات قلبها خوفا كأنما ضبطت بجريمة، وجزعا من أن تعجز ميار عن الوفاء بوعدها.

فلقد تبينت كيف امتلك باسم آلاف المعجبين ممن يلاحقون دوراته حيث حل، وتوقعت أن يكون حضور الأمس كاسحا.

عادت لتتأمل كلماته من جديد، وبلا وعي أرسلت طلب صداقة لحسابه الشخصي!

أنيقة هي دوما، غير أن أيا ممن عرفوها كان لا بد أن يلاحظ أنها مختلفة هذا الصباح.

- أنتِ خرافيَّةُ الحسن هذا الصباحَ.

تغمز بها ميار.

متـوردة الوجـه، متناسـقة الجسـد. هـي نفسـها انبهـرت مـا أن طالعـت المـرآة وتعجبـت.

تراه الأمل مفتاح السر؟

الأمل الذي ينبثق من موضع في ذواتنا قصي.

يشرق على وجوهنا، يصبغ نفوسنا ببهائه.

تـراه ذاك المكنـون السـحري الـذي يفـرض نفسـه، يكتسـح كل مـا عـداه مـما لحـق بنـا، مـن يـأس وإحباطـات.

يجـدد أرواحنـا لتعـود سـيرتها الأولى، صبغـة ربانيـة صبـغ اللـه بهـا الأرض، ثـم كسـا العظـام أمـلا وبهجـة!

صهرتهـا الحيـاة، انتهكتهـا، مزقـت منهـا كل ممـزق، وتبـدت نهـى وحيـدة، ضعيفـة، بائسـة لا تقـوى عـلى خـلاص.

فإذا بها قد لاح أمل خلقا آخر، ووجودا آخر، بل ذاتا أخرى.

أم تراه الحب؟

عنقاء أسطورية أخرى، غطاها الرماد، انقضت عليها السنون.

حتـى إذا مـا أيقـن الجمـع بهلاكهـا إذا هـي تـبرز مـن جديـد نافضـة رمـاد الإهـمال، وغبـار الهجـر. متشـكلة في أروع حلـة، وأبهـى وجـود.

عنقـاء فاتنـة كحوريـة جنـة، ملسـاء كحيـة ذات سـم زعـاف بـلا تريـاق.

كإبليـس ملعـون أبـدا، يجـري مـن ابـن آدم مجـرى الـدم، فـما اسـتطاع الخـلاص.

تـراه الحـب انبعـث، بعـد كل مـا انقـضى، خلقـا جديـدا فسـيرها كيـف شـاء وانطلـق بهـا إلى سـاحته.

وسيم باسم، كذا تبصره بعيني أنثى محبة.

انسـاب صوتـه إلى أذنهـا أسـطوريا رومانسـيا حالمـا، وعـلى الرغـم مـن التفاتهـا عـن فحـوى كلامـه فقـد وعتـه.

سـؤال عسـير كانـت قـد أهملتـه قبـلا مـرات، يطرقهـا اليـوم بـلا هـوادة.

حـين أحبتـه لم يكـن ذلـك المحـاضر المتأنـق الواثـق، بـل عـلى العكـس تمامـا، بـدا خجـولا انطوائيـا معـدوم الثقـة.

تراه درب من الشفقة اللعينة التي أرقتها لدى أول لقاء؟

ولكـن في أي مرحلـة شـيطانية وعـلى غفلـة مـن الزمـن أنبتـت بـذور الشـفقة حبـا؟

صيرتهـا مـن ثـم عشـقا أليـما، يمـزق نيـاط القلـوب كمخلـب قـط حـاد عـبر سـنوات طـوال.

أي تفاعـل خبيـث ذلـك الـذي جـرى في قلبهـا عـلى حـين غفلـة مـن حارسـها الأمـين؟

فلقـد صـيرت نهـى سـنوات الدراسـة مـما قبـل باسـم (إذ عـدت يـوم حـب باسـم مفتتحـا لتقويـم جديـد)، صـيرت لقلبهـا حارسـا أمينـا، هـو هجـين مـن ترقـب وقلـق وخـوف.

مـما يقيهـا بـأس الحـب، ووجـع الفـراق، وإن لم يقِهـا تلبـس الوله، مـا أن التقـت عينيـه، يطرقهـا السـؤال بـلا هـوادة! لم أحبت باسـم؟

-١٧-

القاعة ممتلئة عن آخرها، لا موضع لقدم. الجموع متلهفة.
وباسم يخطو عبر القاعة ببطء. خطواته راسخة ثابتة.
مذبح أحلامه القديمة.
وصورته في مخيلته ظافرا منتصرا.
يتمنى لو كانت كل تلك الصور الملتقطة ذات جودة عالية.
إحداها ستؤرخ تلك اللحظة أبدا كملخص لحياته وخاتمة!
كالعادة، دورة جديدة، ما يعني المزيد من الترحال، ووجوها عدة، ورقما آخر يضاف إلى صفحة متابعيه على فيسبوك.
والأهم، أصفار ذات عدد لا بأس به تضاف إلى رصيده البنكي على سبيل المجاز (فباسم يعمد إلى حفظ مدخراته في موضع أمين بشقته).
من ادعى إذن أن الصيدلة ليست وسيلة رائعة لجني المال؟
على هذه النقطة ترتكز دعايته، ولا بأس من بعض التوابل، الحديث المستمر عن القيمة، الهدف، الرسالة، كل تلك الغطاءات الأخلاقية الممتازة التي تبرر المبالغ الباهظة نسبيا، كلفة دوراته التدريبية.
تضاعفت شهرته أكثر من مرة في الفترة الأخيرة.
وصار بالإمكان ترجمة العلم الصيدلي التطبيقي إلى قيمة ذات أصفار على اليمين.
بث الأمل في نفوس الصيادلة الصغار، بأن المستقبل ليس

بهـذا السـوء الـذي اعتقـدوا، وبـأن بالإمـكان إن هـم بذلـوا بعـض الجهـد أن يحققـوا نجاحـا مـا.

لا يقـدم ابتـكارا، فـما تزخـر بـه دوراتـه التدريبيـة هـو نتـاج بحـث في عـشرات المراجـع العلميـة والمواقـع الطبيـة، قبيـل تغليفهـا بإطـار محبـب مـن التبسـيط والأسـلوب الأخـاذ.

أدرك العوامـل النفسـية للتشـويق، مزيـد مـن الفديوهـات الدعائيـة، المـودة الزائـدة حـين التعامـل مـع المتابعـين، تغليـف ذلـك كلـه بتواضـع وخفـة دم وقليـل مـن التديـن العـصري! الـذي لا يـؤذي أحـدا ولا يعمـد إلى التشـدد ولا يميـل إلى التحـرر.

بجسـده غـير المتناسـق، المائـل للبدانـة، وبحضـور طـاغٍ، كاريزمـا أخـاذة ضربـت الصـورة التقليديـة لأصحـاب الكاريزمـا في مقتـل.

وبصوت جهوري حاسم فرض نفسه وبقوة.

صار باسم اليوم هو المفهوم المجرد للنجاح.

صار أيقونة.

خطـوات مهنيـة ناجحـة، شـهرة ضاربـة، دوراتـه تمثـل الصـدارة عـلى مسـتوى الحضـور والأربـاح.

وإلى جـوار ذلـك يديـر صيدليـة متواضعـة تـدر عليـه أيضـا بعـض الربح.

لسـنوات قلائـل مضـت مـا كان لمراقـب أن يتوقـع لباسـم، ذاك الفتـى الريفـي التقليـدي أو مـا دون التقليـدي ربمـا، سـيكون لـه هـذا المسـتقبل المـشرق.

باسـم الفتـى الخجـول المتشـكك الـذي شـوهد لمـرات مصطحبـا فتـاة خلسـة إلى كافتيريـا الكليـة، في أكـثر أفعالـه جموحـا!

بركانه الصاخب الذي كان يموج في نفسه طويلا انطلق عقب التخرج، وقد تمثل له النجاح المهني والمادي هدفا.

قمة هرم التمسها نبراسا.

ولقد مضى ممتنا للأقدار إلى المنتهى.

باسم ومنذ يومه الأول كان قد أدرك أن الإنترنت بوابته الخلفية لعالم من التواصل تختفي فيه الحواجز، وتنكسر القيود، بوابته التي أطل منها على العالم بلا مصاريف دعائية طائلة أو تكاليف باهظة.

بدءا بالمنتديات التي أدمنها لفترة مرورا بيوتيوب وفيسبوك انتهاء بإنستجرام!

تجاوز رقم معجبيه على صفحات التواصل أرقام معجبي العديد من المشاهير، رغم اعتماد شهرته على رواد المجال الطبي فحسب!

أذكى نتاج جهده، فمهما يكن يومه شاقا لا ينسى تخصيص وقت للتواصل مع محبيه ورواده عبر عوالم فيسبوك.

يشاطر بعضا من آرائه المتبسطة أحيانا، يجهز ردودا منمقة دبلوماسية.

يدس دعايته بين الكلمات باحترافية فائقة.

يطالع كتابًا رشيق العبارة، ليخرج بمعنى بسيط يشاركه مع متابعيه، قبيل أن يدلف إلى يوتيوب ليتابع ما استجد في علمي المحاضرة والتسويق.

لقد أفاد كثيرا من ذكائه واجتماعيته «المستحدثة»مضرب الأمثال، ذهن حاضر، أسلوب متماسك يُحيي اللب والوجدان.

قدراته العقلية جلية وقراءته للأفراد والشخوص مثار إعجاب.

سواء إدراك ذلك أم لم يدرك، فقد تبدلت كثير من آرائه وقناعاته في السنوات القلائل بُعيد التخرج.

فولت وجهها شطر المصلحة والفائدة، تغير تدريجي يصعب إمساك أطرافه وبداياته.

من قبل، دأب باسم على اعتبار الكليات الخاصة وسيلة لجني الربح، والاتّجار بالعلم وتحويله إلى شهادة ورقية قابلة للشراء.

شعر قديما بالظلم، حين تأمل رفاقا كان يراهم دون المستوى قد التحقوا بالدراسة في كلية مناظرة لكليته التي بلغها بشق الأنفس، استثاره كثيرا أن يدرسوا من العلم أقله ويتحصلوا من الدرجات على أعلاها.

وسط محاكاة متقنة لدراسة أرهقته.

اليوم يجد غضاضة في التصريح بذلك.

بل يبدي ترحابا بطلاب تلك الجامعات، إذ هم أقدر ماديا على الالتحاق بدوراته المكلفة.

في حين يؤجج شعورهم بالنشوة لتحصيل علمه، ويذكي محاولاتهم المستميتة في إثبات ذواتهم.

تدخل كثيرا لتغيير مسار صراع اشتعل حول جدوى الكليات الخاصة على صفحته، بل نمق ردودا لإفحام من حمل ذات أفكاره القديمة، ضاربا أمثلة تقليدية لجامعات وكيانات راقية، متجاهلا كونها استثناءات من بين أعداد الخريجين الضخمة التي تضخها الجامعات الخاصة كل عام، «جامعات البيزنس» كما

أسـماها قبـلا، وكـما تجاهـل تسـميته ومَجَّهـا اليـوم.

-١٨-

اليـوم، واليـوم تحديـدا، في قمـة مجـده ونشـوته كنمـوذج لنجـاح مجـرد، ينتابـه شـعور مباغـت بالتضـاؤل.

الفقد القديم ولوعته.

وخزة قاتلة تصيب فؤاده.

البحث عن تكامل مفقود.

ربمـا، كان شـعوره يـوم دلـف إلى كافتيريـا الكليـة مصطحبـا نهـى بزيـه التقليـدي وسـمته الريفـي مثـار السـخرية، ربمـا كان يومهـا أكـثر اتزانـا وثباتـا مـن اليـوم، إذ كان باسـم حقيقيـا يومهـا.

لم ينس قط أن ارتباطه بزوجته جاء تقليديا نمطيا.

نسيم عابر لا تتخلله ريح.

حياة جامدة بلا تقلبات ولا مفاجآت.

«ليـس منطقيـا أن تقـضي حياتـك إلى جـوار أحدهـم مـن بـاب الواجـب الإنسـاني، فكيـف إذا مـا انقضـت حياتـك الزوجيـة كلهـا عـلى هـذا النمـط؟»

سـفينة مسـتقرة تشـق طريقهـا المرسـوم سـلفا عـبر بحـر هـادئ، دون أن تتعـرض ولـو لـدوار بحـر.

النمطية قاتلة!

النجاح المستمر يدق رأسه بضغوط عصبية متلاحقة.

الزوجة المتدينة الورعة تلاحقه كالكابوس!

تطـل عليـه تلـك الأفـكار، كـم تـاق لأن تكـون زوجتـه مقـصرة،

إذن لمنحه هذا غطاء أخلاقيا ممتازا ومبررا مستساغا لأفكاره المعربدة.

لقد فقد الكثير وإن تبدى للعيان رواج تجارته.

أم تراه افتقد لذة التملك بدعوى الابتذال؟

هل تلك هي الحياة التي أملها؟

زوجة محبة متفانية لإسعاده.

ابن مدلل ينمو أمام ناظريه.

ابنة جميلة ورثت حسنها عن أمها، ترتسم على محياها ابتسامة تشرق لأجلها حياته.

تنتظرها في الغد حياة مرفهة لم يُقدر له أن يحياها.

صيدلية تدر دخلا معقولا، دورات تدريبية يقصدها جمع وافر، اسم رنان، شخصية ذات حضور كاسح، يفرض نموذجا جديد للنجاح.

لازمه التوفيق، غير أنه روى غراسه بالجهد، وها هو اليوم يحقق أهم أحلامه، ومع ذلك يشهد تهاوي عالمه في لحظة أن أبصر عينيها.

فأمام باسم، وفي الصفوف الأولى من المدرج، كانت حاضرة، خرافية الحسن كما عهدها دائمًا.

هناك كانت نهى!

-١٩-

يثقل الحمل كاهل جمال مذ كان صغيرا. حب لا حد له يكنه والده لأخيه الأكبر، بينما يراه متفلتا عابثا لا يصلح لشيء.

حتى حين ارتحل للعمل في العاصمة رأى فيه هاربا آبقا.

مع أن الأب ذاته قد قضى شطرا من طفولته هناك في القاهرة، قبل أن يعود الجد بالأسرة إلى سيناء.

لم يحدثه أبوه مثلما حدث أخاه عبد الله عن سنوات تيههم الأربعين، التي لاحقت أهل سيناء بدءا بتولي «الطاغية»، كذا سمى الأب «مبارك».

يرى جمال في أبيه وأخيه نموذجا رومانسيا حالما، هو الذي بهرته المدينة بأضوائها وألوانها الفاتنة، لم يستوعب بعد كيف تبهرهما الصحراء القاحلة تلك؟

يحب سيناء؟ قطعا، لا ينكر.

الطبيعة الساحرة، الجمال الأخّاذ في بعض المناطق.

ذلك الرابط السحري الذي يربط تلك البقعة المقدسة بأهلها.

غير أن حبه حب عذريا، لا يسمح فيه بالالتقاء بالصحراء أو التجانس معها.

حب يختلف عن حب أبيه وأخيه الذي تراه جليا في أعين أبصرت بأنوار قمر سيناء.

دماء امتزجت برمالها يوما فما استطاعت منها فكاكا.

الوضع الآن اختلف بعض الشيء، مع المناوشات العسكرية

التـي جـرت في تلـك البقعـة، ومـع سـقوط أخيـه قتيـلا منـذ أيـام قلائـل عـلى سـبيل الخطـأ، وفقـا لإعـلان الجهـات الأمنيـة.

تعقـد الأمـر تمامـا إذ بـدا أن عـودة جـمال إلى القاهـرة درب مـن خيـال.

أبـوه قـد بلـغ مـن الكـبر عتيـا، بـل إن زوجـة أخيـه في طريقهـا لأن تضـع حَملهـا بعـد أيـام، الطبيـب يتوقـع ولادة قيصريـة تتطلـب مـالا.

الطفل المضاف إلى الأسرة عن قريب يحتاج لمصاريف طائلة.

وما يملكونه بالكاد يكفي لسد الرمق، لا عمل هنا أو هناك.

ماذا عن العاصمة؟

سـيكون آبقـا حقـا في نظـر نفسـه قبـل نظـر أبيـه إن رحـل. لم ينجـح في العمـل هنـاك مثلـما خـدع نفسـه مـرارا.

حـاول أن يعمـل في أي شيء وكل شيء غـير أن الفشـل لاحقـه كظلـه، لكنـه كـذا لم ينجـح في العمـل هنـا.

إن عمـل هنـاك بدافـع إثبـات نفسـه وولهـه بأضـواء العاصمـة فبـأي دافـع سـيعمل هنـا؟

تلاحقه نظرات الأب اللائمة أنى ارتحل.

أبوه مؤمن حقيقي. يردد أنْ «قدر الله وما شاء فعل»

و«لله ما أعطى ولله ما أخذ»

لم يقنط وقد انحنى ظهره بمقتل فلذة كبده.

إلا أن جمال يشعر بأن أباه يحمّله مقتل الأخ.

وكأنما كان أولى به أن يعمل بديلا عنه أو أن يُقتل فداء له.

الآن، يجلس جمال في فناء الدار متأملا.

منـزل بسـيط مـن طابقـين مبنـي بالطـوب اللـبن، سـقف بائـس تتخللـه عـروق خشـب متهالكـة أعياهـا القـدم، تنـم عـن ضيـق الحـال وشـظف العيـش.

بالأمـس سـار في بلدتـه تحـدوه الخطـى، بيـوت فقـيرة متباعـدة يتباعـد بعضهـا عـن بعـض، إذ قـل عـدد سـاكني البلـدة.

بيـوت تنغلـق أبوابهـا بعـد صـلاة العشـاء، ومـن ثـم يـأوي أهلهـا إلى خدورهـم.

الملـل الشـعور الأبـرز، تختلـف الحيـاة تمامـا عـن العاصمـة الصاخبـة.

بل تختلف عن الجنوب كذلك.

جنـوب سـيناء الصاخـب الـذي قـضي فيـه شـهورا قلائـل يعمـل مـع أخيـه، أو يتظاهـر بالعمـل.

مجموعـة مـن البـدو كان قـد انضـم إليهـم، يتذكـر أمسـياتهم العابثـة.

سـهراتهم الحمـراء التـي يتخللهـا تراقـص أجسـاد أنثويـة مُفعمـة بالحيـاة.

دخان الحشيش يغلف المكان، يلفه بسحره.

دخان الحشيش لازمه فترة، حد أن صار طقسا.

وإن صار متعثرا في الفترة الأخيرة نظرا لضيق الحال.

يشده إلى تلك الأيام روح البداوة التي عاشها.

بـداوة متمـردة صاخبـة، لا تـداني وجـه أبيـه الـورع ومسـبحته العتيقـة.

ولا رجولة أخيه ودماثة خلقه.

مـا يشـده لتلـك الأيـام أن لم ينظـر لـه أحدهـم نظـرة دونيـة كنظـرة أهـل الـوادي، حيـث يشـعر بالغربـة.

بـرزخ معنـوي شـديد الثقـل، ذاك الـذي يفصـل الـوادي عـن شـبه الجزيـرة، تتعـدد حولـه المشـاعر وتـدور الحكايـا.

حين يصل سيناء يشعر كأنما اجتاز بعدا آخر.

وحين يعبر إلى الوادي يحس كأنما انتقل إلى أتلانتس المفقودة.

عالم ساحر جميل جدا، غير أنه لا ينتمي له.

شعور العزلة مرير قاتل. لقد فقد جمال ذاته منذ زمن.

منذ أن راه والده كَلّاً أينما يوجهه لا يأت بخير!

يتأمـل السـور المنخفـض الـذي يحيـط بمنزلهـم، مسـورة حياتـه بمثلـه.

بل مشرنقة.

شرنقة من العزلة تحيط به، تضيق الخناق.

تلتـف وتلتـف، الشرنقـة تمنـح يرقتهـا الحيـاة، تخرجهـا خلقـا جديـدا.

غير أنه أدرك أنْ سيخرج من شرنقته ميتا.

كذا يعتقد ويؤمن.

بالأمـس تأمـل منـازل مـن الطـوب الأحمـر المحـترق، ومنـازل غُلـف طوبهـا بطبقـة إسـمنتية مُدعمـة، بـل وأخـرى مدهونـة ملونـة.

حقـا كانـت الألـوان قاتمـة، تحمـل طابعـا حزينـا ذا شـجن، كطابع سـاكني الديـار، إلا أن هـذا في حـد ذاتـه تحـول فريـد.

ستتطور سيناء حتما، عجلة المدنية قادمة لا محالة.

أبنـاء سـيناء النازحـون إلى الجامعـات ليستنشـقوا العلـم غضـا، سـيعودون مُحملـين بطابـع المدنيـة والحداثـة.

ربما بعد أعوام قلت أو كثرت. لا يهم.

يتذكر جمال شطرا من طفولته، كم ود لو يكبر ليصير شرطيا.

هـا قـد كـبر، واسـتقر في وجدانـه أنهـا محرمـة عليهـم «لأكـثر مـن أربعـين سـنة ربمـا»

السـلطة والنفـوذ الممنوحـين للشرطيـين وضبـاط الجيـش لا يُمنحـا إلا لأبنـاء الـوادي.

قانـون غـير مكتـوب، غـير أنـه يطبـق خـيرا مـن آلاف القوانـين التـي حوتهـا الدفاتـر.

كسيناوي سيظل موصوما بالشك ما حَيي.

أضف إلى ذلك شقه البدوي الذي يبغض السلطة.

يبغـض التقيـد، فهـو ومـع إقامتـه في القاهـرة لا يـزال يحمـل جينـات سـيناوي عاشـق لحيـاة حـرة، بعيـدا عـن قيـد حكومـة تكبلـه وتضيـق عليـه.

الشرطة لم تَسع قط لكسب ودهم، كثرت المظالم، زاد النهب.

كان مـن المنطقـي، في فـترة، أن يُرحـل أهـل بيـت مـن بيوتهـم تحـت دعـاوى حفـظ الأمـن، ومـن ثـم اعتـذار باسـم يُقـدم أو لا يقـدم وانتهـى الأمـر.

يتذكـر تحقيقـات الشرطـة مـع والـده في المـاضي، والـده المسـالم البسـيط، تحقيقـات مكثفـة لا تخلـص إلى شيء، ونظـرات شـك لا تنتهـي.

زارتهـم السـلطة عـن قريـب، مـا أن ترحـل قـوات الأمـن حتـى

تعتبر جماعات الجهاد والده متواطئا مع السلطة، ولربما سعت إلى قتله، وما بين طرفي رحى تدور المأساة.

الغربة في نفس جمال قاتلة.

منتهاها موقف عربات الأجرة الذي يتوقف العمل به عند المغرب.

حيث تتعلق سبل الفرار.

عم كمال، السائق الصموت، البائس أبدا، المصاب بداء السكري، يرمق زبائنه بنظرات ساخطة متعالية.

عربات متهالكة قليلة متراصة، ورائحة عرق مقززة.

أقداح شاي ثقيل يتبادله السائقون. ربما أقراص مخدرة كذلك مما يعين على السهر، ويقي وعثاء السفر، ويغشي كآبة المنظر، غير أنها لا تمنع دوما سوء المنقلب.

مع كل تلك التركيبة البغيضة إلى قلبه فهي تذكرته الوحيدة للانطلاق إلى أتلانتسه المفقودة.

الحسناء الناعمة الغنوج التي تأباه.

والهرب من بدوية ساحرة تهواه.

ترزح سيناء تحت ثقل شديد باسم الوطن.

تتعاقب عليها الجيوش الغازية عبر التاريخ.

تدنسها، تسوم أهلها خسفا، والقوم صابرون محتسبون.

ولكن عسير أن تكون عينا للوطن ومن ثم تُطعن من الظهر بطعنات قاتلة من مُدي مسمومة بأيدي أبناء جلدتك.

ربما لم يستوعب جمال يوما مفهوم «وطن»إلا أنه يعرف أنْ ما عاد ينتمي لشيء.

لأي شي.

وطنه، سيناء، بل حتى نفسه التي بين جنبيه ما عاد إليها ينتمي.

يشعر بتردي روحه وانكسارها عند هذا البرزخ الوهمي الفاصل بين عالمين، وبين قارتين «حقيقيتين»إلا أنه لم يكتشف بعد أتلانتسه المفقودة.

يجلس جمال ساهما، يتأمل هاتف أخيه الذي استبدل به هاتفه إذ فرغت بطاريته، يتذكر ساخرا كيف أنه نسي استبدال بطاقة الاتصال، ومن ثم يتذكر أن لا فارق كبيرا.

فشبكات الهاتف مقطوعة جل ساعات اليوم، بدعوى إحباط عمل العناصر المشبوهة!

(أي عناصر مشبوهة سيوقفها انقطاع شبكات الهاتف؟)

تراقص رقم غريب على الشاشة المتهالكة لهاتف أخيه العتيق من ماركة نوكيا، اللهجة القاهرية استدعت حضوره.

رحلة طارئة تستدعي أخاه دليلا.

المتحدث يحادثه بوصفه أخاه، ما يؤكد أنه لم يتعامل مع عبد الله قط أو يعرف صوته.

- لا مشكلة.

لم ينس أيام الجنوب وسبله بعد، سيثبت لوالده كيف أن بإمكانه الاعتماد عليه، سيوفر المال اللازم لولادة زوجة أخيه. سيكون الغد رائعا.

-٢٠-

بضغطة زر بسيطة أو هكذا تبدو قبل باسم صداقة نهى الإلكترونية.

وبحنكة أنثوية نمقت تعليقا فيسبوكيا أنيقا تشكره فيه على مجهوده المبذول في المحاضرة الأولى، وتشكره على جهده في تجديد معلومات تراكم عليها جهد العمل، مُغفلة عامل الزمن كأنثى صميمة، ثم ضغطت زر الإرسال.

ضغطة ممزوجة بالرجفة والتوجس.

مُغلفة بارتعاشة اليد وتورد الخد.

وما كان لباسم أن يتورع عن محادثتها عبر رسالة رقيقة منمقة.

«لا كدأبه يوم عرفته»

وابتدأ حوار عذب ما كان له أن ينقضي إلا بفجر يوم جديد.

يومها حلقت نهى بين السحاب.

رحلت هناك حيث جرم سماوي قديم قدم الأزل، يحلق في فلكه منذ الانفجار العظيم وقد أغفلته الثقوب السوداء وعوامل الزمن.

فلقد انجلت بتلك المحادثة، رسمية الظاهر الحميمية في باطنها، عوامل صدأ غلف قلبها الرقيق الذي قد نسي كيف يكون رقيقا.

يومها تبدى للكون وجه لم تعهده قبلا.

حتـى يـوم عرفـت باسـم في عالمهـا الأول، فلقـد ابتـدأ اليـوم في عمرهـا تقويـم جديـد حقيقـي.

تناسـت نهـى عمرهـا وعمـره، حياتهـا وحياتـه، أغفلـت زوجتـه التـي علمـت بوجودهـا قطعـا، وانتشـت بالسُـكر اللذيـذ والغفلـة المطلقـة لمرتهـا الأولى.

لقـد وجـدت لذاتهـا حيـاة حقيقيـة، وانتشـاءات عـدة لم تتذوقهـا، ومـا عـاد في العمـر متسـع لـتردد أو تفكـير.

أسـلمت نهـى فؤادهـا مـرة جديـدة، عـن طيـب خاطـر وبـلا وجـل.

-٢١-

الحيرة تطرقه، وبوصلته هائمة بلا قرار.

مرساه بعيد لا يُري، واتزانه مُختل.

يجول باسم الشوارع مشحونا بذكريات انقضت، يطوي أرضا قد طواها قبلا بنفس غير النفس. وروح غير الروح.

لشدما اختلف باسم طالب الصيدلة عنه اليوم!

يجول على غير هدى وإن كانت بوصلته قد عينت هدفا لم تعهده منذ زمن.

يسترجع ذكريات ماض سحيق.

ومن بعيد يراها متوجة على عرشها. في ذلك الركن القريب، في موضع لا يعرف كيف قادته إليه قدماه. ولربما لا يعرف طريق عودة.

انتصبت عربة سندوتشات تقليدية لربما رأى مثلها قبلا عشرات المرات.

سندوتشات الكبدة الشهية التي كان قد امتنع عن تناولها في الشارع منذ زمن طويل.

يتعلل بضرورات الطعام الصحي، القواعد الصارمة التي يلتزمها منذ سنوات، عله يصل لمظهر يليق بمحاضر.

ذهن مشوش بألف تحذير وتحذير طبي حول مخاطر هذا النوع من الطعام.

اتجه صوب هدفه.

سلم مفاتحه لسحر طالما بهره قديما.

تلك التركيبة الكيميائية العجيبة التي تعرف باسم سندوتش الكبدة، ذلك الصانع البارع الذي أثار عاصفة من الرائحة الفاعلة كأفضل فواتح الشهية التي سجلها العلم.

كيميائي بارع يضبط عناصر تفاعله بدقة وحنكة حتى يحصل في الأخير على خير النتائج.

دوما ما رأى باسم في وقت تحضير الطعام عائقا. يقف عاجزا عن استيعاب فكرة استهلاك ساعات لإعداد طعام تستمر متعته لدقائق.

غير أنه الآن ينظر للأمر بشكل مختلف.

التعويذة السحرية التي تحول العناصر متنافرة الشكل واللون والطعم إلى قوام متماسك من الطعام، هي تعويذة جديرة بالاحترام.

على الرغم من أن باسم يعلم الوصايا العشر عن تجنب الأكل المكشوف غير المحتفظ بحد أدنى من الأمان الغذائي، لكنه تناسى.

كان جائعا، والجوع كافر بحق.

في الأغلب سوف تستدعي تلك المغامرة مغصا وغسيلا معويا جزاء وفاقا.

غير أن التجربة تستحق.

كانت التعويذة في مراحلها الأولى، ما مكنه من لمح اللون الأخضر للفلفل الطاغي على المكان.

هذه علامة جيدة، فندرة الكبدة هنا دليل على جودتها! مع

هـذا السـعر البخـس فالأمـر يسـتدعي ريبـة واجبـة.
تنساب الرائحة لتذكي أنفه، وتلهب شهيته، مثلما لم تكن قبلا.
تناول طعامه. نقد البائع أجره وانتشى.
لم يشعر بأنه قد شبع هكذا منذ زمن طويل.
أدرك أن قيودا أرساها لسنوات قد بدأت في التكسر.

-٢٢-

حدثتها عن الحب، الوله، الاشتياق.

ألم الهجر والفراق، جراح القلب التي لا تُداوى أبدا.

- ترتكز حياتنا على الحب، سيكذبون، لا أحد يموت من الجوع، إنما نموت لأن أعمارنا انقضت، أو لأننا فقدنا الحب بعد ظفر.

سيخدعونك، سيدعون النضج، والحكمة.

هأنذا، الحب أوجدني وأشقاني الترك.

«تقولها دامعة العين»

- الحب يوجدنا، يُبقينا، يبررنا، يحمينا.

خادعت نفسي ألف مرة، وهربت منها من المرات ألفا، سخطت، وغضبت، وما وجدت قبلتي في غير الحب.

تتذكر كلمات بثتها باسم يوما بغية طمأنته

- حتى لو كنت تاركي، لن أخذلك، ولن أندم يوما على شعور صادق بذلته، يكفيني أنْ صدقت قلبي واتبعته.

غير أنني من خذلت، وتركت!

كانت تغالب دموعا منسابة فلم تستزد ميار.

تحدثها عن رحلة سيناء، فيشرق وجهها، وتلتمع عيناها.

- لمَ لا؟ ما الضير؟

رحلة مرتقبة تجمع حبيبَي الأمس وحبيبَي اليوم، على بعد عشرات الكيلومترات من صخب العاصمة، في قارة أخرى، ولربما

كـون آخـر، وتمنـت نهـى صادقـة لـو كانـت في زمـن آخـر. فلربمـا تكفلـت عذوبـة الطبيعـة في إصـلاح مـا تلـف، أو في إعـادة الأمـور إلى نصابهـا، إلى تلـك اللحظـة السـحرية قبيـل الـترك.

-٢٣-

الشتاء هذا العام قارس، غامض، محبب.

تندس ميار في الأغطية الوثيرة، وتراقب غرفتها المغلقة.

تعـود لتتأمـل الغرفـة الدافئـة الخاليـة في ذلـك الوقـت، ثـم تـدرك فخـورة أنهـا بخـير.

ليست كأولئك البائسين ممن يواجهون الشارع البائس الآن.

في هذا الوقت تحديدا، تشعر بإشفاق تجاههم.

ينسـاب إلى أذنيهـا اللحـن الهـادئ مـن مشـغل الموسـيقى دافئـا رقيقـا.

ينتابهـا حنـين غامـض. لمَ لا تحـادث نهـى وتخبرهـا عـن مشـاعرها المتخبطـة الوجلـة؟

تعود للتدوين في دفتر أنيق تعمد إلى تخبئته بعناية.

هـذا الجـو الـذي يعصـف بروحهـا ووجدانهـا، ويحـرك الحنـين بداخلهـا، هـو جـو جديـر بـأن يحيـط بعاشـقة ولهـة.

لمَ لا تعترف لدفترها الذي سيحيط سرها بسور وردي أنيق؟

هائمة هي.

ورقة شجر تتقاذفها الرياح في خريف عاصف.

ورقة شجر راضية، سعيدة.

ابتسـامته العذبـة تصهـر روحهـا في مزيـج مُحبـب مـن الوجـد، يطالعهـا بهـا فتـشرق بنفسـها آلاف الشـموس الصغـيرة.

نظراته إلى وجهها ينسدل لها جفناها خفرا.

لقد قابلته اليوم، طالعت وجهه الصافي، راقبت ملامحه الرقيقة، كملامح طفل تجود بالبراءة.

بصرت ابتسامته من طرف خفي.

تتأمل حالها، مشاعرها الوليدة، ومن ثم تخط كلماتها.

«إنه الطارق لأجل إثبات الوجود، فلا يحتاج إلى إذن، المتشح برداء زهري يفوح بأريج العطر والرياحين، الترنيمة العذبة التي وحدت القلوب إلى قبلتها، وجمعت الأهواء إلى مستقرها.

الحب.

الأنشودة الخالدة، التي يشدو بها الكون، ويحلو.

وتحفظها الأجنة في بطون أمهاتها.

طارق يطرق بغير أوان.

ويضرب في الأرض بلا عنوان.

فيحل حيث اشتهى المقام، ويرحل حين يشتاق لجديد ترحال.

الحب، أسطورة البشر، ودرة تاجهم، وسر تلاقيهم.

ومحرك حضارتهم، وأصل تراثهم.

العلاقة المتشابكة غاية البساطة.

المترابطة غاية الهشاشة.

المتأصلة غاية الرهافة.

تتجمع فتفترق، توجد فتتشكل، وتتبخر فتنتشر فتضاعف وجودها حين الوجود كحين العدم، سواء بسواء.

تختلف صورها، تتباين، إلا أن في الأخير مردها واحد.

إنه الحب الذي طرق قلبها وأرقه، اقتحمها بلا سابق إذن،

تحـاول أن تغالـب نفسـها فتتسـاءل.

تراها أحبته؟

وسيم هو يحيى بلا جدال، الكل يعلم ذلك.

لم تخادع ميار نفسها يوما بالقول إن الوسامة لا تعنيها.

أو إن محور اهتماماتها دين وخلق مثلما تردد الزميلات.

تهتم بهما نعم.

غير أن وسامة يحيى آسرة، كاسحة.

حضـوره طـاغٍ، محبـب، كلماتـه الرصينـة، وصوتـه الهـادئ ينفـذ إلى القلـوب بـلا اسـتئذان.

ثقافته واسعة، أدركتها منذ الوهلة الأولى.

ربما يظهر بعض الافتعال.

ربمـا يشـتهر بكـثرة العلاقـات مـع الفتيـات، والحديـث في هـذا يطـول.

بل ويسع كليته من أقصاها إلى أقصاها.

إلا أنها أدركت أنه لا يعتبرها كالأخريات.

فنظرته لها مدارها التقدير.

هـذا مـا تلحظـه حـين يجمعهـما عمـل مشـترك ضمـن أنشـطة الكليـة المتعـددة.

كذا تلحظ من عذوبة صوته، رقة كلماته، حال مخاطبتها.

زميلاتهـا بالمثـل لاحظـن هـذا الاهتـمام، بـل لقـد تحـول التلميـح إلى تصريـح مـن قبلهـن، محفوفـا بحسـد لا يخفـى.

اهتمام يختلف عن كل اهتمام متوقع بأي فتاة في دائرته!

كعنكبوت مُجد ينسج خيوطه منتظرا فريسته القادمة.

خطـوط رقيقـة كصوتـه الـذي يأسرهـا، وينتقـل بهـا إلى عـوالم الأحـلام.

لم تتخيل ميار نفسها في هذا الموضع.

الفتـاة المثقفـة المعتـزة بذكائهـا وكيانهـا تسـقط في بحـر الحـب بـلا قـدرة عـلى السـباحة.

تجدف عكس تيار لا تستطيع منه فكاكا.

اليوم عرض عليها رحلة سيناء كختام مختلف لدورة باسم.

خاتمة لا تُنسى. كذا قال.

عرض عليها اصطحاب أي من شاءت من صديقاتها.

يحيى محط أنظار فتيات الكلية يتلعثم؟

شدما أدهشها ذلك وأفرحها.

وإن عملـت وسـعها عـلى ألا تظهـر ذلـك عـلى قسـمات وجههـا، أرادت بتحفـظ فسـحة وقـت لعـرض الأمـر عـلى نهـى.

يا للحياة حين تبتسم!

«الحب يصنع المعجزات»

الحـق أنهـم صادقـون، لا شيء مثـل شـعور الفتـاة بأنهـا محـور اهتـمام أحدهـم، جنتـه ونـاره، قبلتـه ومـلاذه، محـور كونـه.

الشـعور بـأن هنـاك مـن يعنـى بهـا، يهيـم بهـا، يحملهـا حمـلا إلى مملكتـه، يلبسـها تاجـه، شـعور لا يضاهـى.

لم تكن غريرة حين وثقت، بل كانت محبة.

أحبت اهتمامه قبل شخصه.

اهتمام متوازن رجولي.

أحبت حبه، كلماته العذبة لها سحرها ووقعها في النفس.

قبلا كم سدت أذنيها.

تمنع كلمات الوجد والهيام من أن تتسلل إليها، اليوم قد اختلف الأمر. أسرها يحيى، انتقل بها إلى جنة أحلام وردية اصطنعتها على عينه.

حلق بها في سماوات زرقاء يسبح فيها ألف كيوبيد وكيوبيد، ليطلقوا سهامهم الذهبية وتعلو ضحكاتهم الطفولية المجنونة.

أولئك الحمقى، هل أدركوا سوأة ما فعلوا؟

-٢٤-

بدفترها الأنيق عادت ميار للتدوين:

«جميعنا يمتلك بموضع من ذاته ذلك المراقب الحذر.

يتربص، يراقب، ومن ثم يرسل إشاراته إلى موضع بأنْ تأهب.

احترس يا أحمق.

ستلاقي حتفك.

حياتك تتغير، تتبدل، تختلف قريبا.

غير أن هناك جزءا آخر سيرفضه، فتغلق عينيك وتصر أن تستمر في طريقك بذات الدأب.

تعمل جهدك على أن ترتقي خلال سنيّ العمر إلى إنسان ترضاه، تؤخر، تسوف، وتحكم بأن تبلغه غدا.

غير أن ذلك الغد لا يأتي أبدا.

تدور في دائرة مفرغة بلا انقطاع، تسرع الخطى أو تبطئها.

ومن ثم تكتشف أنك ما برحت مكانك»

عملت ميار الجهد على أن تتقوقع خلف درع ثقيلة تقيها تقلبات الحياة.

غير أنها اليوم أدركت كم كانت رهيفة تلك القوقعة التي احتمت بها.

تغرق في بحر عينيه الساحرتين المتوهجتين ببريق أخاذ، ومن ثم تنساب كلماته ساحرة، تخترق أذنيها، ويجول في جنة مشاعرها، وقد أدرك كعب أخيل الخاص بها واستباح حرمه.

-٢٥-

وهكـذا، بالإمـكان يـا شـباب أن تصبـح صيدلانيـا مميـزا، يقصـدك المريـض مـن أقـصى الأرض معتمـدا عـلى علمـك وخبرتـك.

ولكن لنتذكر جميعا إخلاص العمل لله.

أتمنى لكم التوفيق في حياتكم العملية وشكرا لحسن الاستماع.

السلام عليكم.

قالهـا باسـم متسـارعا ضاغطـا عـلى مخـارج الحـروف، وقـد بـدأ قلبـه في اسـتعادة نبضاتـه الطبيعيـة، كأنمـا أزاح عـن كاهلـه حمـلا ثقيـلا، بـدورة تدريبيـة جديـدة ينهيهـا بتلـك النهايـة المقتضبـة وابتسـامة مـلء الفـم.

ضبـط كاميرا هاتفـه مـن ماركـة آي-فـون عـلى وضـع السـيلفي، والتقـط صـورة تضـم الجمـع بعـد أن تأكـد مـن أن نهـى هنـاك في زاويـة الصـورة.

صـورة سـتنهال عليهـا آلاف الإعجابـات وعـشرات التعليقـات مـن عينـة «يـا ليتنـي كنـت معهم!»سـواء عـلى صفحـات إنسـتجرام أو فيسـبوك.

قبيل أن يعيد ترتيب أوراقه استعاد كلمات يحيى:

- سـنصعد الجبـل، وهنـاك عنـد القمـة ستشـاهد أروع مشـهد تبـصره عينـاك تزامنـا مـع شروق الشـمس.

يعشق باسم لحظات الفجر، يراها نقطة انطلاق حقيقي.

ذلـك الضـوء الخافـت الـذي يتسـلل عـبر سـماوات ضاقـت بالليـل

ذرعـا، ذلـك النـصر المـؤزر الـذي حققـه النـور، وعـلى أثـره انطلـق مختـالا في جـو السـماء.

ميلاد صبح جديد يلوح في الأفق.

-٢٦-

لم يعتد جمال يوما أن يحادث أباه.

لهذا استقى جل ما يعرفه عنه من أخيه الأكبر عبد الله.

عبد الله الحامل لاسم أبيه رشاد في بطاقته القومية على عكس جمال المسمى بجمال عباد.

برر ذلك الأخ بفترة عصيبة اضطر فيها الأب إلى تغيير اسمه إلى «عباد»لأسباب سياسية.

كذا قال عبد الله، وهذا ما ألفه جمال ولم يهتم بمعرفة التفاصيل!

لربما كان اهتمام الأب بعبد الله «الابن الأكبر»مبررا، نظرا لوفاة أمه في طفولته، إذ عهد الأب إلى أم جمال «زوجته الثانية»بتربيته، فنشأ عبد الله محوطا بحنان زائد، ولقد نشأ سويا قويما، بينما اصطلى جمال بالآم فقد لم يتجرعه أخوه فاقد الأم.

يتحدث عبد الله عن أبيه حديثه عن أسطورة لم تدون بعد في كتب الأساطير.

عملية جراحية أجراها لعنزة صغيرة، هو الذي لم يتم تعليمه!

ولعه بالتجارة والسفر والترحال.

تجارته في ليبيا لسنوات، والأعجب الذي أثار دهشة جمال هو حديثه عن إجادة الأب رشاد للإنجليزية إجادة تامة.

وتحدثه بها إلى أبنائها الإنجليز، فما ينكر عليه أحدهم منها

شيئا.

لم يعن الأب رشاد كثيرا بتعليم جمال بعض الكلمات الإنجليزية التي اهتم بتلقينها عبد الله، وأعانته كثيرا في تعامله مع السياح في الجنوب.

لربما لم يجد فيه الروح المثابرة المتعلمة التي وجدت في ابنه «البكري»

حدثه عبد الله كثيرا عن فترة وجود جدهم في القاهرة حيث ولد رشاد.

التحاقه بالتعليم في مرحلة باكرة. اصطحابه الرفاق إلى المدرسة.

عبور «مزلقان»السكة الحديد كل يوم صوب الجهة المقابلة، حيث تقع المدرسة.

حصن شامخ، وقلعة حصينة تضن بالأسرار.

تحوي كهنة ضموا صنوف العلم وقطروه سهلا مذابا سائغ الشراب.

يتحلقون معا، يلهون في الفناء، يرحلون معا في طريق العودة المعاكس لطريق الذهاب.

حدثه عن يوم كئيب كالح تحلقوا فيه كعادتهم، جلهم أطفال في صف التعليم الرابع الابتدائي، بعضهم في الثالث، بينما كان عزت طفلا غضا في صفه الأول.

أسلمته أمه إلى جمع الأطفال راجية أن يعتنوا به.

يومها كان رشاد طالبا في صفه الرابع، تلكأ عزت، تأخر على المزلقان.

تعثر، ثم سقط، ومن بعيد لاح القطار وحشا كاسرا بسرينة

عاتيـة.

غفـل العامـل عـن غلـق المزلقـان يومهـا، مثلـما غفـل عـن الطفـل الـذي تناثـرت أجـزاؤه عـلى خـط السـكة الحديـد.

وقطعـا لم يـدرك بطفـل آخـر مُجـد تـرك التعليـم محمـلا بثقـل ذنـب وفـاة المـلاك الصغـير.

انـزوى عـن التعليـم قبيـل أن تعـود أسرتـه أدراجهـا صـوب سـيناء بعدهـا بعام.

-٢٧-

كان يحيى غائصا في فراشه. بينما يتأمل حازم وجهه ويتابع تطور حالته، قبل أن يسائل الممرضة:

- رحل الضابط؟

- يجيء ويروح، يتابعه بلا كلل، كأنما هو ابنه.

- لن تفهمي هؤلاء العسكريين أبدا! «قالها ساخرا»، ما يعنيه تقريره، رقم وانتهى الأمر وليذهب الفتى ونحن إلى الجحيم.

«يشير إلى الفتى باهتمام»

- هل من جديد؟

- لا جديد، غارق في أحلامه.

- يحلم؟!

- قطعا، وجهه وجه حالم، انظر إلى ارتعاشة جفنيه!

ينظر إلى حماستها بدهشة:

- تابعيه باستمرار، إياك والغفلة، ولا داعي للأحلام.

قطع الطريق إلى غرفته مثقلا، غاص في مقعده ومن ثم بدأ يسحب الدخان من سيجارته الرفيعة، واخترق أذنيه صوت أم كلثوم صادحا.

أغدا القاك؟!

« لا داعي للأحلام!»

كانت يده تخط خطوطا عبثية على ظهر ورقة تذكرة طبية، بالأدق كانت ترسم.

الحلم القديم، يتذكر.

يـوم انطلـق طفـلا مُحمـلا بإنجـاز لوحـة جديـدة يأمـل أن تنـال إعجـاب أبيـه.

حلم بأن ينطلق لسانه محفزا ومشجعا.

يومها كان أبوه محملا بثقل العمل ليوم طويل.

عـبء لا ينقـضي أبـدا، ولقـد تـرك أثـره في شـعيرات بيـض زحفـت عـلى رأسـه.

لم يتحمل الأب إلحاح ابنه فانطلق يمزق لوحاته كل ممزق.

بـل وتمـادى إلى أدوات الرسـم ولوحـات قديمـة أنفـق عليهـا جـل مصروفـه ووقتـه، فأنـزل بهـا النـوازل.

يومهـا تـرآى لحـازم أبـوه شـيطانا مريـدا قـدم مـن جهنـم ليفسـد حيا ته .

ذلـك الوجـه القديـم لأبيـه يطالعـه حـين كل لقـاء وإن تنـاسى مـع تتابـع الأحـداث مبـدأه، غـير أنـه لم ينـس قـط يـوم طفـق أبـوه يمـزق لوحاتـه.

خلافا لرفاقه لم ينعم حازم بوالده طوال الوقت.

لم يعتـد لسـانه أن ينطـق «بابا»سلسـة يسـيرة كلـما ألجأتـه الحاجـة أو مـن دون.

كانت عصية على النطق، بعيدة عن الذاكرة.

ولقـد كان والـده ضيفـا يحـل عـلى البيـت بعـد أن يـأوي إلى فراشـه وتتلقفـه أحـلام الطفولـة، طفولـة لم يحيهـا كـما ينبغـي.

لقـد عـرف الكثـير مـن زملائـه ممـن قضـوا شـطرا مـن حياتهـم في بلـدان أجنبيـة بحكـم عمـل آبائهـم، غـير أن أيهـم لم يفتقـد ذلـك

الحنـان المنـزلي مثلـما افتقـده.

ربمـا لتجهـم والـده الدائـم، وإصراره عـلى الحسـم فيـما يعنيـه مـن أمـور.

ربمـا لإصراره عـلى عمـل دؤوب شـاق، سـاعده عـلى مضاعفـة رصيـده البنـكي مـرات ومـرات.

كان والـده مميـزا. جـراح فـرض اسـمه عـلى الأوسـاط الطبيـة في كل محفـل، صـار علامـة مسـجلة يُسـتدعى بالاسـم لإجـراء جراحات خاصـة لأسـماء رنانـة في أوسـاط السياسـة والفـن.

ولقد ضاعف جهوده لترسيخ اسم مستشفاه.

أحد أكبر مستشفيات العاصمة وأكثرها خصوصية.

إمبراطوريـة ضخمـة، أرسى قواعدهـا بجـد، ولـذا كان لزامـا عـلى ولي العهـد الوحيـد -إثـر حـادث طريـق فقـد الأب عـلى أثـره قدرتـه الإنجابيـة- أن يمسـك بزمامهـا.

ولمـا كان مجمـوع حـازم في الثانويـة ضئيـلا، فقـد عمـل الأب عـلى تسـجيله بإحـدى الجامعـات الخاصـة في تلـك البقعـة البعيـدة، بمـا يناسـب مجموعـه.

فشل الأب في تحقيق حلمه متمثلا في ابنه، فاشتراه بالمال.

كذا نظر حازم للأمر.

يسـحب نفسـا جديـدا مـن سـيجارته، وينظـر بسـخط إلى خطـوط مرتبكـة ارتسـمت عـلى الورقـة.

لم يعن قديما بالمال كمعنى مجرد.

فالمال الذي بذله والده لأجله كان كافيا وزيادة.

غـير أن السـبب الحقيقـي كان مـرده أن المـال في معنـاه الحقيقـي

هـو مـا دُفـع لـه قديمـا نظـير تمزيـق لوحاتـه، كإشـارة لحلـم قديـم دُفـن للأبـد.

ومـع تقدمـه في دروب الحيـاة، ومـع إهمالـه لموهبتـه القديمـة، بـل ومـع إدراكـه لكيـف غـير المـال مجـرى حياتـه، أدرك قيمتـه الفعليـة، لا كـما رآهـا مـن قبـل في بعـض ورقـات.

مـع رؤيتـه لنظـرة الجميـع لعربتـه الفارهـة وإنفاقـه البـاذخ عـلى الرفـاق، إنفاقـا يحـرص عـلى تقاضيـه مـن كرامتهـم، حضورهـم، وشـخصياتهم، أدرك تمامـا أنـه يسـاوي بالضبـط مـا يملكـه مـن مـال.

أدرك أنـه هـو ذاتـه قـد تحـول إلى رقـم مـادي، سـواء وفـق منظـوره أو وفـق منظـور والـده تبعـا لمـا ينفقـه عليـه مـن مـال.

المال، القيمة الفعلية، السلطة المطلقة، الحلم المحطم.

يعنـي المسـتقبل المـشرق المضمـون، شريطـة أن تحيـا حيـاة ليسـت لـك، وحلـما لم تحلمـه.

ربما لهذا لعبت والدته دورا مفصليا في شخصيته وحياته.

فهـي تعنـي فـرارا مؤقتـا مـن عـالم الأب الجـاف المؤطـر بعلامـات دولار مُذهبـة.

ارتبط بها كليا.

حـد أن تحـلى ببعـض الصفـات الأنثويـة، خاصـة حـين تـدور كلماتـه مـع الرفـاق حـول إحداهـن.

ما فعلت، وما قالت.

كلماتـه وتعبيراتـه مصبوغـة بصبغـة أنثويـة نـدر أن توجـد في الرجـال.

حتـى غيرتـه مـن الرفـاق الأكـثر حظـا في الـذكاء والحضـور

والرجولـة، تتسـم بطابـع أنثـوي لا تخطئـه العـين.

حديثـه الدائـم عـن الفتيـات في كل محفـل، بنـبرة متهتكـة مائعـة تـشي بحرمـان لا يشـبع ومعانـاة، ويؤكـد شـعوره بالنقـص تجاههـن.

معرفتـه بتفصيلاتهـن، حياتهـن، بـل وعناويـين منازلهـن اسـما اسـما.

حديثه مداره عن ارتباط فلان بفلانة، إعجاب هذا بتلك.

ملاحظاته الجديرة بأنثى، والتي يستحيل أن يلاحظها الرجال.

كل ذلك انعكس على شخصه.

كل ذلـك يدركـه، يتحسسـه في كل موقـف ويخشـاه، ومـن ثـم يلـوذ بالفـرار إلى الجانـب المظلـم مـن القمـر، حيـث يرتـدي قناعـا رجوليـا مُفصـلا خصيصـا لأجلـه، المعجـون بالشرقيـة الـواشي بالتديـن الـذي يسـمح لـه بالحكـم عـلى كل غاديـة ورائحـة.

طرقـات متسـارعة عـلى البـاب، تدلـف بعدهـا الممرضـة إلى حجرتـه.

- الضابط خالد يطلب...

«يسـكتها بإشـارة سـبابته، يشـير إلى رأسـه وإلى صـوت أم كلثـوم الـذي يعبـق بـه المـكان»

- مشغول!

تبتسم بارتباك قبل أن يسأل:

- هل لا يزال يحلم؟

تجيب ما بين ابتسامة ودهشة:

- نعم لا يزال، آمل أن يفيق من الحلم قريبا!

ثبـت نظـره عليهـا للحظـات، كانـت خلالهـا قـد فـرت وأغلقـت

البـاب.

- اللعنــة، كلــمات تلــك الفتــاة تــدق الوجــع بدقــة. قاموســها اللغــوي مــؤلم!

استفاق إلى أفكاره.

كانت سمر حلمه الخاص المتفرد.

علاقته بالفتيات محل ارتباك وشد وجذب.

نتـاج لطفولـة عجيبـة، فلقـد كان حـازم طفـلا عاديـا بـكل مـا تحملـه الكلمـة مـن معـانٍ، ليـس ذلـك المشـاغب الـذي يتحـرش بالرائـح والغـادي مسـتعرضا قوتـه، وليـس بذلـك المتفـوق الـذي يلفـت الأنظـار.

كان عاديـا مـن ذلـك النـوع الـذي لا يحفـظ اسـمهم أحـد، ولا يتذكـر أحـد شـكل وجهـه.

ولقـد كانـت حـب طفولتـه الأول في فصلـه المجـاور، عمـد إلى لفـت نظرهـا بطريقـة بائسـة دفعهـا إليـه خيالـه.

اسـتأجر زميـلا مـن أولئـك الذيـن يسـتعرضون عضلاتهـم عـلى الجميـع.

قام برشوته بمقابل يليق بطفل في المرحلة الابتدائية.

ومـن ثـم تعـرض لـه في إحـدى فـترات الفسـح عـلى مـرأى منهـا، وانهـال عليـه ضربـا، لم يـدرك قبـلا أنـه قـوي لهـذا الحـد، فلقـد ظـل زميلـه يُعالـج لفـترة!

أم أنه الحب يصنع المعجزات؟!

الطفلـة الرقيقـة هربـت مـن ذلـك الشـجار الهمجـي كـما ينبغـي

لها !

هربت مثلما هربت سمر!

بجمالها الذي يستثير رغباته الحارقة.

برقتها اللامتناهية التي تتماثل لعينيه الأنوثة مجسدة.

بوضعها الاجتماعي الملائم له تماما.

شكلت تكاملا فريدا، غير أنها رحلت وتركته بعد أن تبدت مرآة لحقيقته.

- لا أدري، أسأتزوجك؟ أم سأتزوج أمك وأباك؟ لا ينقصك غير استئذانهما قبل تناول كوب ماء!

أنت بلا شخصية على الإطلاق!

أريد أن أتزوج رجلا حقيقيا.

كلماتها أرقته، لطمت جبينه وأوجعته، بل إن جملتها الأخيرة أقسى ما واجهه في عمره، نكأت جرحه.

ولقد كان كل ما فعله بعدها لأجل أن يكون رجلا حقيقيا!

- لقد طلبت ندبي إلى سيناء!

- أمجنون انت؟! سيناء؟ والآن تحديدا في هذه الأحداث!

- سأشعر بالراحة هناك، أعلم ذلك.

- والمستشفى هنا؟ والتخصص؟ الوضع قلق هناك، أخبرني اللواء...

- اللعنة على كل العسكريين!

كانت جملته الأخيرة من الجمل الكفيلة بإنهاء أي حوار أو تقارب!

كان عنيفا حاسما مثلما لم يكن قط، ظهره للجدار، ما عاد يملك ما يخسره إذ خسر سمر!

كان شجاعا حقيقيا، كامل الشجاعة، فالشجاع الحقيقي هو من لا يملك ما يُخسر!

وإن أفضل ما في تحقق أسوأ كوابيسك هو أنك لن تعود تخشى أن تتحقق أسوأ كوابيسك!

لم يعد شيء يخيفه أو يقلقه، بل صار شعور الخوف معنى بعيدا لا يطأ أرضه.

حاول استعادتها وفشل.

شدما كانت قاسية، لم تبال بصراخه وبكائه ورجائه.

مثلما لم يبالِ هو ببكاء أمه ودمعة حائرة أبت أن تغادر مقلتي أبيه.

- لقد فعلت كل هذا لأجلك، ولأجلك فقط.

كاذب، الآن فقط يسعى لاستثارة شفقته، كان يسعى لأجل صورته كأب صالح يعمل ويكد لأجل ابنه.

انتقل سيناء على غير إرادة حقيقية، في معركة لا ناقة له فيها ولا جمل!

يعلم تماما أن أباه يراقبه من طرف خفي، التوصيات تنهال عليه من كل صوب، والكل يعمل حسابه، وهو يفيد من كل ما يُفعل لأجله، إفادة مجانية.

علاقات والده متشعبة برجالات الجيش، تمثلهم اليوم في خالد.

كانت الممرضة مندفعة:
- الضابط يصر على مقابلتك!
- اللعنة على كل العسكريين! أدخيله!
قالها وبدأ في تحضير نفسه لجولة استفزاز جديدة.

-٢٨-

قلق مثلما لم يكن قط!

- هل أنت واثق في عبد الله هذا؟

- ألم تحادثه؟

- نعم ورتبت معه موعد الرحلة.

- لا تخش شيئا، سيرتب لك رحلة لا تُنسى، اعتمدت عليه في كل رحلات العام الماضي، أنت تعلم أنني أقوم بتنظيم الرحلات منذ زمن، هذا أفضل دليل تعاملت معه، يحفظ الطريق كاسمه، ستكون رحلة ممتعة.

غمز بعينيه متخابثا.

- لا تخف يا دون-جوان، ستسقط الفتاة مغشيا عليها من فرط الرومانسية. أولم تجد طريقة أسهل للاعتراف بالحب إلا الاعتراف به على قمة جبل عند شروق الشمس في قارة أخرى؟!

يقولها ساخرا فيبتسم يحيى، ومن بعيد يتعالى صوت مذياع قريب.

«أغدا ألقاك؟»

للوهلة الأولى لم يرتح أي منهم لجمال، هناك طرز من الناس تنطق ملامحهم بالريبة وتشع بأن: توجس، الطبيعة ذاتها تناديك بأنْ فِر منه فرارك من الموت.

غير أنه -كما الموت أيضا- سيدركك.

لم يكتف جمال بما أثاره من ريبة وقلق فطالب، بلهجته المطوطة التي تدعي الشبابية وتنطق بالابتذال، زيادة أجره.

تعلل بظروف البلد، ضعف أحوال السياحة، نقص الأدلة، اتجاههم لأعمال أخرى تسد جوع أطفالهم، كانت إشارة شديدة الخبث تحمل إشارة مبطنة بأن لن يجدوا غيره.

باستثناء يحيى لم يعرف أي منهم تفاصيل المبلغ المدفوع، ولقد كان الاتفاق غير المكتوب يقضي بأن هذا كل شيء.

غير أن تغير ملامح يحيى وتململه أكدا أن الزيادة التي يطلبها جمال فادحة.

عندما تنحى بهم موشوما بالخجل ليخبرهم بحاجة طارئة لجمع المال من جديد، ملوحا بأن لا بأس من مساعدة ذلك البدوي الذي ضاقت به الحياة.

حينها ثارت ثائرة باسم:

- المساعدة لا تكون بالاستغلال ولي الذراع، من المفترض أن هناك اتفاقا.

قالها باسم بلهجة ذات معنى.

ارتفعت نبرة صوت يحيى وقد زال الخجل من محياه مظهرا غضبا مكتوما.

- بإمكاننا قضاء الليل كله بحثا عن دليل، وقد يتأجل صعودنا للغد، ما يعني تكاليف إقامة إضافية، هل نتكلف كل هذا لأجل ألا نخضع للاستغلال؟

اندفعت نهى غضبى:

- لكننا دفعنا تكاليف الرحلة بالفعل!

سعت ميار لتلطيف الأجواء بعض الشيء:

- السياحة ليست على ما يرام فعلا، ثم إنه يبدو محتاجا للمساعدة، أعتقد أن بعض الزيادة لن يضير أحدا.

قاطعهم صوت جمال الممطوط بلهجة ساخرة:

- هل سنمضي الليل كله في هذا الاجتماع؟

أجال نظراته الوقحة فيهم!

تمتم يحيى ببعض العبارات الغضبى على سبيل الرد، في حين قالت نهى باستسلام:

- يتكلم من منطق قوة، لن نمضي ليلتنا هنا طبعا، لقد أجاد استغلال الفرصة!

بعدها بدقائق كانوا قد بدأوا الصعود وسط محاولة جماعية لتناسي الأمر برمته.

حاول يحيى جاهدا أن يخفف مقدار الزيادة، إلا أن جمال كان وغدا حقيقيا!

ومن ثم دفع المال حانقا متمتما باستغلال الظروف وبأننا لن نتغير، وغيرها من العبارات الساخطة.

تقاضي جمال المال راسما على وجهه ابتسامة متوددة وهو يقول بلهجته:

- دعوا عنكم المال!

ولقد لاحظ الكل سخرية مراوغة في كلماته، غير أن باسم كان من انفجر ساخطا:

- لقد تقاضيت أجرك كاملا غير منقوص، ومن ثم زيادة قاتلت لأجلها، أي مال ذلك الذي ندعه عنا؟

بدأ جمال في الحديث المتودد عن الظروف الصعبة، وتكاليف الحياة، في حين كان يتقدمهم عبر طريق جبلي ممهد، بينما تساءل يحيى إن كان الطريق ممهدا بكليته.

أجاب جمال بلهجة خبير:

- طبعا، أغلب الجبال هنا منحدرة، غير أن هذا الجبل تحديدا ممهد منذ زمن، مهده الخديوي إسماعيل.

- لو علمنا ذلك ما احتجنا لمثلك.

قالها يحيى متهكما في محاولة للتغلب على غصة حلق ألمت به من جراء الموقف بأكمله.

غير أن جمال كان قد أسرّها في نفسه ولم يبدها، وبدأ في إلقاء نظرة على ساعته.

الطبيعة في تلك البقعة ساحرة، رقيقة، لم تفقدها الحياة بعد قدرتها على الدهشة حال تكشف الكون مرتها الأولى.

طبيعة تأخذ بيديك برفق نحو عوالم لم تعهدها، لم تتصورها إذ لم تحلم بها أصلا.

تجول بسحرها، تتوغل في نفسك، حيث تتعرفها مثلما لم

تتعرفهـا مـن قبـل.

يخادعـك طـول طريـق الصحبـة بحسـن التعـرف، قبـل أن تكتشـف أن هنـاك مجاهـل لم تعـرف عـن وجودهـا شـيئا، هنـاك، في موضـع مـن ذاتـك قـصي.

النقـاء يغلـف الوجـود، يتسـلل عـبر رئاتهـم ليتنفسـوه ومـن ثـم يعـبر الشريـان والوريـد.

يشق طريقه نحو القلب راضيا عن الكون والذات.

صعـدوا وسـط شـعور جمعـي بـأن رحلـة حياتهـم، طالـت أو قـصرت، كمـدة صعـود جبـل كهـذا.

إصرار عـلى بلـوغ قمـة تسـتبين معالمهـا لأجـل التمتـع بشـمس سـتشرق حتـما في الأفـق.

رحلـة لتبديـد حجـب الظـلام، الخـوف، رحلـة الإنسـان الأبديـة نحـو الترقـي والتمايـز.

كان جـمال متأهبـا قلقـا، وإن حاولـوا سـؤاله عـما ينتظرهـم هنـاك في القمـة حـين شروق الشـمس.

تحـدث بحـذر ومـن ثـم استرسـل، تحـدث عـن أخيـه الـذي قتـل منـذ أيـام تـاركا زوجـه الحامـل، تسـتلزم حالتهـا عنايـة خاصـة قـد لا تتوافـر في المستشـفى الحكومـي القريـب، وقـد يسـتلزم الأمـر نقلهـا إلى عيـادة الطبيـب المجهـزة.

تحـدث عـن كيـف سـيتطلب الأمـر مـالا لا يقـوى جـمال عـلى التكفـل بـه.

حدثـه باسـم عـن الثقـة بالله، عـن اليـسر الـذي يـلي العـسر، وإن فـرض حديـث جـمال حالـة مـن الشـعور بالذنـب تجاهـه،

ما استلزم صمتا استمر طويلا إلى أن فاجأهم جمال مشيرا إلى موضع قريب:

- أعتقد أن المكان مناسب لتناول بعض الطعام وشرب الشاي على الطريقة البدوية، قالها ضاحكا كاشفا عن فخر طفولي بقدرته على التحكم في خطوات تلك المجموعة الصغيرة من أبناء الوادي.

كان جمال ماهرا بحق، فخلال دقائق كان قد رتب كل شيء متحدثا بثقة عن أن الطريق إلى القمة بات مفروشا بالورد، وبأن الصعود ومن ثم العودة لا يحتاجان إلى دليل قدر احتياجهما إلى دفء الصحبة.

تحدث جمال وتحدث بينما كانت خطواته قد بدأت في التراجع.

- ها قد انتهى دوري يا شباب، فلتتناولوا طعامكم ومن ثم لتواصلوا رحلتكم.

أشار إلى الطريق الجبلي، وهو يرسم ابتسامة ماكرة بينما هب باسم فزعا:

- ماذا تعني؟ إلى أين أنت ذاهب؟

- لقد أخبرتكم قبلا. عائلتي بحاجة إليّ في هذا الوقت. ولقد قمت بواجبي خير قيام.

- لن تنزل الجبل من دوننا، الاتفاق كان على أن تصحبنا نحو القمة ومن ثم العودة معنا.

- عائلتي لن تنتظر طويلا، والطبيب كذلك، ولربما رفض استقبال زوجة أخي ما لم يتقاض أجره!

- بإمكانك تسوية الأمر معه حال العودة. بيننا اتفاق.

حـاول يحيـى أن يوجـه باسـم إلى محاولـة تطويـق يائسـة، غـير أنهـما تبـادلا نظـرات قلقـة إثـر شـعور عـام بـأن هـذا الفتـى الـذي تـشي عينـاه بالـشر يحمـل مديـة حـادة، إن لم يكـن سـلاحا ناريـا.

شعر جمال بتحركهم فقال بثقة ساخرة:

- كفـى أفـكارا صبيانيـة يـا شـباب. لا تحاولـوا أن ترتكبـوا خطـأ عمركـم. أهلكـم بانتظاركـم في العاصمـة!

قالهـا سـاخرا ومـن ثـم مـضى، كلمـح البـصر، كـسراب رأوه لوهلـة ثـم لم يعـد هنـاك.

ارتسـمت نظـرة الرعـب عـلى الوجـوه، ومـن ثـم بدلـوا النظـر بـين طريقـين، طريـق سـار فيـه جـمال منـذ ثـوان هابطـا، وطريـق نحـو القمـة يجـب عليهـم السـير فيـه غـير أنـه يتطلـب جهـدا ومغامـرة!

-٣٠-

أطـل الجبـل مـن عليائـه مختـالا، ولقـد أشـار بمـا لا يحتمـل جـدلا. قـد حـان وقـت الجـد أيهـا المتحـدون الصغـار.

لا يشكل هذا الجبل تحديدا تحديا كبيرا.

جبل يسهل ارتقاؤه غالبا.

غـير أن غيـاب الدليـل ومـا أحدثـه مـن لطمـة موجعـة عـلى جبـين كرامـة الرجـال، فضـلا عـلى تسـارع الدقائـق نحـو موعـد لقيـا شـعاع شـمس أول هنـاك عنـد القمـة، كل ذلـك عمـل عـلى تثبيـط العزائـم ولم يـترك احتـمالات قويـة للعـودة.

مـا بقـي أقـل بكثـير مـما فـات، أضـف إلى ذلـك جـرح الكرامـة الملتهـب، أدمـاه بـدوي راحـل دون أن يتيقنـوا مـن أنـه يحمـل مـن السـلاح مـا يرهـب بـه أولئـك الرجـال.

تبادلوا نظرة مترددة لا معني لها لثوان.

مـن العبـث القـول بـأن كل مـا أنفقـوه مـن مـال، وقلـق، وكرامـة وخـوف سـيذهب هـدرا في الأخـير.

ولم؟ خوفا من قمة جبل قيد الاشراق؟

- سنواصل الرحلة.

نطقهـا كيانهـم الجمعـي حاسـما، ولقـد ولـوا وجههـم شـطر قمـة جبـل ناعسـة تتمطـى في ليلـة مشـوبة بـبرد قـارس.

قمة تضيق ذرعا بأولئك الحمقى.

تتساءل أي شيطان دعاهم لتحدي الجاذبية والارتقاء؟

الشعور بالفخر اعتراهم!

ها نحن أولاء نصعد بلا دليل.

طريق ممهد يسير، وإن بدا البرد يفرض وجوده.

لم يكونوا ذوي خبرة، لم يجلبوا زيا ثقيلا يقيهم البرد وبأسه.

أم تـراه تقصـير جديـد مـن دليـل غـير موثـوق في رحلـة لم تـك قـط مأمونـة العواقـب.

انساقوا لها دون أن يدروا حتى الآن أخوفا أم طمعا؟!

-٣١-

تقدمـوا في الصعـود كتقـدم أعمارهـم، أعـمار تمثلـت قطعـا مـن الليـل مظلـما، ولقـد تداعـى مخـزون الذكريـات.

أسـكرهم الـبرد فانطلـق اللسـان، ربمـا بغـير مـا اعتـادوا منـذ زمـن، فـما عـاد هنـاك فـارق بـين حديـث نفـس وحديـث يسـمعه الجمـع.

السير الطويل، والبرد القارس قد اجتمعا.

وطئا منهم كل موطئ.

ولقـد تداعـت طبقـات المدنيـة الهشـة فتبـدى رجـل بـدائي اختـار سـبل العمـى يومـا لئـلا يعتريـه الجنـون.

أن ترى الكون مثلما خلقه الله، هو نعيم الأرض.

غير أن ترى بشريا مثلما تشكلت أعماقه، فهو عين الجحيم.

(بعض العمى جيد)

كـذا أدرك رجـل الكهـف الأول، فطـلى فطرتـه بمـلاط ثخـين مـن مدنيـة.

ارتقى سبل الحياة ليفر من ذاته التي بين جنبيه.

لئلا يرى حقيقتها.

ألمها، جراحها المشبعة بالصديد والقيح.

اعتلى الكون، غير أن روحه ظلت هناك عند السفح.

تواصل الانحدار والتردي.

وتحـول العمـى المُختـار إلى انتشـاءة وغايـة متفـردة، سـكرة، غـير

أنـه سـكر مـر قبيـح.

-٣٢-

للوهلة الأولى لم يدركوا أي كارثة ألمت، تصاعد البرد وتنامى.

كابوس مريع.

يسحق جسدك من تحته فلا ينفك عنه.

يثقلك بحضوره ومن ثم يمد قبضته القاسية إلى فؤادك، فينتزعه انتزاعا بُعيد أن يعتصره بلا رحمة.

الاختناق، تنامي الهواء، بزوغ البصر وزيغه، ومن ثم انكشاف غطائك فهو اليوم حديد.

-٣٣-

الظلمة.
الخوف.
الوحدة.
الموت.
الطريق الممتد إلى الأبد.
الخطى البطيئة المثقلة.
الخلاص.. الخلاص..
يسلم خطاه إلى الأمام بلا نهاية.
يجادل الحركة.
يبغي الخلاص.

-٣٤-

يحكى عن ثلاثة نفر، كانوا على سفر، أدركهم الليل والعاصفة. فأووا إلى جبل. غار في جبل بالتحديد يبغون الدفء، ويطلبون الأمن.

عمدت العاصفة ليلا إلى صخرة فأغلقت بابهم.

غشيهم الخوف فاجتمعوا. فاقترح أحدهم أن يذكر كل منهم عملا خالصا لله، يتقرب له به، بغية الخلاص.

-٣٥-

تسارع الخطى.
حين تنغلق على روحك، تتبدى نفسك.
أنت لست قديسا، فقط لم تُختبر.
لم تغشك التجربة.
تتحرر من ثقلك، تساقط على جانبي الطريق معالم قداستك.
صوت باسم يحكي، ينطلق من بعيد، يخرق حجب الظلمة.
البرد يجمد أطراف يحيى.
يحاول فتح عينيه.
يُثقله ما رأى.

-٣٦-

وإن مرت بك الأحداث فإن أول مرة تظل ذات وقع فريد.

بداية الأشياء، حيث مبتدأ التذوق، ولذة الاكتشاف الأثيرة.

تحمل متعة وبهجة محببة.

ولقد تداعى اليوم حاجز منيع أضفاه عقله فيما سبق على ما انقضى من أعوام.

تظل الذكرى قابعة هناك في عقلك أبدا، تستدعي ذاتها حين يطيب لها المقام.

يتذكر الآن يوما مضى كأنما يراه واقعا.

يتذكر كيف قضى سنته الجامعية الأولى، ومن ثم استمر في العاصمة ليعمل في إحدى الصيدليات.

يومها تملك باسم أول مال يتحصل عليه بجهد يمينه.

كان له لذته وبريقه، يتذكر.

كان حديث عهد بالثانوية، قرويا بائسا أضفت عليه المدينة رونقها فتنازعته المدنية والقروية.

إحدى قريبات أمه ممن استقررن في العاصمة منذ زمن هاتفته يومها.

دعته إلى زيارتها حيث تقيم في حي راقٍ.

هاله المكان وأغراه.

صعد إلى الطابق الثالث حيث الشقة التي بهرته.

يومها كان بادي الالتزام.

استقبلته سيدة في منتصف الأربعينات تقريبا.

بها بقايا من جمال أتت عليه السنون والأعوام.

رداء محتشم سابغ.

حضورها طاغٍ كأم.

أم مثلما تصف الكتب الأمهات، سألته كثيرا عن نفسه. إقامته في العاصمة. ومن ثم تطرقت إلى كيف قضت سنين طوالا مع زوجها في رغد من العيش. كان تاجرا ولقد عمل بدأب لسنين حتى يكون ثروة تؤهلهم للسكن في هذا المنزل الراقي.

تأمل ذوق الشقة الرفيع، الذي لم يشاهده قبلا حتى على شاشات التلفاز.

حدثته عن ابنة أتت في أواخر العمر.

عن فرحة أبيها وسعادتها بها، ريحانة حياتها، كذا قال وأسمتها حسناء.

تساءل إن كان يوافق اسمها وصفها، ولم يك يعرف ما تدخره له الأيام.

كان زوجها وحيدا في الحياة، لا عائلة ولا ظهير.

زوجته وابنته هما كل ما تحويه حياته، ولقد قضى نحبه في حادث طريق منذ عامين.

تجاوزت الحادثة سريعا، ولقد قاومت دمعة حارقة ألمت على أثر الذكرى.

حدثته واسترسلت ومن ثم دعته إلى الغداء.

تمنع أدبا رغم أن قد تاقت نفسه لطعام منزلي، فالعمل يستلزم وجود دائم في العاصمة، عكس أيام الدراسة.

أصرت فاستجاب على استحياء.

يتذكر تلك الأيام الفائتة.

يوم كان حياؤه بكرا لم تمسسه بعد الحياة أو تصهره في لجتها.

يتذكرها كماضٍ سحيق بعيد.

اليوم ترك جله، انتقل إلى طاولة مرصوصة بألوان شتى.

وإن تعجب من اهتمامها غير أنه رشفه حد المنتهى والتذ به.

حدثته عن أن الفتاة تخطو نحو الثانوية هذا العام، وذكرى ثانويته قريبة.

وكيف أنها تضعف عن متابعة دراسة ابنتها.

كانت الفتاة تنتقل تباعا بين دروس خاصة في كل مواد سنتها تقريبا.

- أريد منك ولو ساعتين أسبوعيا، تتابع فيها دروسها وتحصيلها، لك ما تريد فيكفي قدر أمك عندي.

لم يكن يعرف أي رابطة تربطها بأمه، فالقرابة أبعد من نبرة حديثها الودود.

لم يكن قد ارتدى قناع المجاملة بعد ولا ألفه.

اليوم تراه تهتك من وفرة الاستعمال.

كان طفلا بعد. ينطلق الكلم إلى أذنيه ومن ثم عقله فيصدقه بلا تمحيص.

- ما رأيك يا دكتور؟

كان حديث عهد بالكلية، تحمل له اللفظة أحلاما براقة واعدة.

ومـن ثـم وافـق بـلا جـدال مـع ملاحظـة عابـرة حـول أخبـار أمـه. سـاعتان أو ثـلاث أسـبوعيًا لا ضرر منهـا.

فما سيلقاه في هذا البيت من رعاية حال مقدمه يستحق.

ولقد كان، ولا يزال فذا، نابها.

سـتتحصل الفتـاة عـلى درجـات مرتفعـة وسـتكون هديتـه قيمـة بـلا شـك.

فضـلا عـما سـيتحصل عليـه مـن الأم قطعـا عـلى شـكل هدايـا لعـدم إحراجـه، كـم تبـدو لطيفـة راقيـة!

انتقل إلى بيتهم مرته الثانية متأنقا مختالا.

استقبلته الأم كخير ما يكون الاستقبال.

يومها جلس مع الفتاة وتأملها مرته الأولى.

حسـناء حقـا كانـت، لم يكـن خبـيرا بالنسـاء يومهـا غـير أنـه قـد أدرك حسـنها.

حدثهـا عـن الثانويـة وحدثتـه، عـن موادهـا، طموحهـا، أعجـب بحماسـتها.

لم يكـن يـدرك حينهـا أن الحيـاة لا بـد أن تبـدأ بتلـك الفـورة الأولى، قبـل أن تفـتر.

هنـاك مـن يعمـل عـلى تأجيجهـا وإذكائهـا، غـير أن الـكل حتـما يبـدأ بتلـك الفـورة الأولى.

مرته التالية أدرك فورة أخرى، جسدها الواشي بالأنوثة.

المزدان بانسدال الشعر الحريري الذي يتوج رأسها.

ضبط نفسه يتساءل عن ديانتها في سره!

قبـل أن يذكـر نفسـه بأنـه في القاهـرة لا قريتـه البعيـدة، حيـث

غطـاء الـرأس هـو التمييـز الظاهـري بـين المسـلمات وغيرهـن.

انتظم في الحضور.

وانتظم في تناول طعام تلك الأم الطيبة الشهي.

كانت مهمته سهلة، فقط المتابعة.

متابعة تقدمها الدراسي، ومتابعة نمو جسدها الشهي بدوره.

متابعة نظرات عينيها الحالمتين.

هل تراه سيتهاوى إلى حبها؟ تساءل بقلق.

فهـو يؤمـن بـأن الحـب مرحلـة متقدمـة لم تـأت بعـد، لـن يطـرق منـزل إحداهـن خاطبـا قبـل أن يمتلـك مكانتـه التـي يبغـي.

لكـن الفتـاة حلـوة. تراهـا أحـلام المراهقـة القريبـة مـن تعبـث بـه وتصـور لـه خـلاف الواقـع؟

ضبـط نفسـه متلبسـا بأفـكار مجنونـة حـول زواجـه بحسـناء ومـا يترتـب عليـه!

ستنتقل له بالتبعية الفتاة وما تملك.

غير أن ضميره حينها كان في أوج سلطته.

أنبه، لامه، أرقه.

مـع الوقـت صـار وجـوده معتـادا روتينيـا، والاعتيـاد يقتـل الحيـاة، ولربمـا قتـل الحيـاء أيضًـا.

تحررت الأم من حشمتها بعض الشيء في وجوده.

الفتاة تبعتها.

وإن كان يلتقـي الأم لدقائـق حـال اسـتقباله وحـال وداعـه، ولربمـا تخللتهـما مـرة إضافيـة حـال تقديـم الطعـام إن لم تقـم بذلـك الفتـاة.

فـإن تلـك الحسـناء المتفلتـة تـتراءى أمـام ناظريـه لأكـثر مـن سـاعتين، إذ تراكمـت الـدروس وتكاثـرت الالتزامـات مـا اسـتدعى متابعـة أكـثر.

أحلام يقظة عدة واشتهاءات طرقت عقله.

أوضـاع ماجنـة كثـيرة تخيـل نفسـه فيهـا يلهـو بهـذا الجسـد الفائـر اللذيـذ.

بـل لقـد حلـم بهـا حلـما جنسـيا ملونـا ثـلاثي الأبعـاد مجسـم الصـوت، اسـتيقظ منـه إلى الحـمام، غـير أن المـاء الـذي أغـرق جسـده لم يخفـف عنـه شـيئا.

-٣٧-

حينـما اسـتقبلته الفتـاة بفسـتانها القصـير الـذي بالـكاد غطـى ركبتهـا، وحينـما تـأودت أمامـه متمايلـة بمؤخـرة بـدأت تكتشـف الكـون للتـو.

وحـين لمـح انضـمام نهديهـا المتشـكلين حديثـا عـبر فرجـة صغـيرة في الفسـتان المثـير، أدرك باسـم أن اليـوم مختلـف تمامـا عـما سـبقه مـن أيـام.

تخللـه عطرهـا النافـذ، رائحـة جسـدها النظيـف، ومالـت عليـه لتقـول بـدلال إن أمهـا ليسـت في المنـزل.

ومـن ثـم ناولتـه هاتفهـا النقـال الـذي ظهـرت عليـه إشـارة بـدء المكالمـة مـع مـن سُـجلت باسـم «مامـي»، تبـادل بذهـن مشـوش كلـمات مقتضبـة مـع السـيدة التـي ألقتـه إلى الهلكـة وفـرت.

أخبرته أنها في الطريق إليهم وتعتذر عن عدم استقباله.

أدرك مـن زي حسـناء أن الأم كاذبـة وعـلى الأرجـح لـن تصـل قبـل انصرافه!

وأخبرته بما سوى ذلك لئلا تلعب برأسه الأفكار.

مغفلـة أن جسـد ابنتهـا يقـوم بـدوره خـير قيـام في زلزلـة أركان الفتـى، أو بـأن فخذيهـا اللتـين انكشـفتا حـين جلسـت قربـه تـدكان حصـن سـلامه النفـسي باللهـب، وبـأن تفاصيـل السـوار الذهبـي الـذي يغلـف يدهـا الرقيقـة يلهمـه بتفاصيـل صاخبـة.

بـل إن السلسـلة المحظوظـة التـي تجـري عـلى رقبتهـا، قبـل أن

تصب في نهر الحياة، تفعل به الأفاعيل.

ارتبك.

وقد أدرك أن وجهه ممتقع بحمرة الشهوة وجسده يغلي بنارها، ولقد لمست الفتاة ارتباكه فاقتربت حتى تسللت رائحتها الأنثوية المُفعمة بالخيالات إلى أنفه.

قبيل أن تميل على شفتيه بوجهها، حيث التقم شفتيها عفوا وتبادلا قبلة كيفما اتفق.

ربما كانت قبلة طفولية حالمة، إلا أنها ظلت أبدا قبلته الأولى التي ظل مذاقها في فمه، ولم تغن عنها قبلات حفصة الملتهبة المدربة.

أدارت الفتاة دفة المعركة الدائرة وقالت بتهتك واضح إثر مرأى فريستها قد انهارت:

- سأحضر كوبا مثلجا من عصير الليمون.

ثم أردفت بنبرة غنوج:

- لتهدئة أعصابك المرهقة.

قالتها ثم تركته متأودة فخورا، وقد حانت منها التفاتة بنظرة شبقة لم تحركه مثلها قط، رغم تعاقب الأعوام.

كأصابع المكرونة المسلوقة كانت قدماه حين حاول أن يقف، فلقد كانت نظرات عينيها دعوة صريحة لاقتحام الخدر ولا جدال.

-٣٨-

في فيلم «Forrest Gump» يستجيب الطفل فورست لنصيحة حبيبته الدائمة (النصيحة لا الحبيبة) بأن «لا تكن شجاعا، اهرب يا فورست».

ومن ثم يطلق ساقيه العليلتين للريح ويركض، وعلى أثره يركض بعض الصبية ممن يتحرشون به.

يركض بعد أن يردد:

- قالت أمي دائما إن المعجزات تحدث كل يوم، البعض لا يعتقدون ذلك، لكنها تحدث.

يستسلم فورست لفعل الركض دون إعمال كثير فكر فيمن يطاردونه، أو دوافعهم، ودون أن يفكر حتى في جدوى الركض.

يظل يركض طوال الفيلم تقريبا. ويظل فعل الركض هاجسه الأول.

فعل الركض بأقصى سرعة، لمن اختبره، واحد من أكثر الأفعال تجسيدا للحرية، أنت تسلم جسدك للريح وتلقي الكون كليا خلف ظهرك، تستسلم لما يلوح في الأفق من مجهول. وتنأى تماما عن النظر خلفك. تتناسى خوفك للحظات وتُفعّل الاستسلام.

ولتصل لتلك المرحلة من الاستسلام لا بد من إغفال العقل للحظات، تفعل مثل الطفل فورست وتعطل تلك الأفكار

المجنونـة التـي يضـج بهـا عقلـك.

حينهـا فلربمـا تحـدث المعجـزات، ولربمـا تنفـك قيـود قدميـك مثلـما حـدث مـع فورسـت جامـب، ربمـا، غـير أن الأكيـد أنْ سـيلوح الكـون أمـام ناظريـك مثلـما لم يكـن قـط. سـتطلق الخطـى بـلا تعـثر. بـلا انتظـار. بـلا قلـق.

أو مثلـما يقـول جامـب: قالـت أمـي دومـا، لا بـد أن تضـع المـاضي خلـف ظهـرك، قبـل أن تتحـرك للأمـام.

فلتضـع المـاضي خلـف ظهـرك. المـاضي برمتـه. ولتُفعّـل فعـل الركـض مـن الآن. الركـض مـن كل مـا يؤذيـك. أو يكـدر صفـو حياتـك. أو ينتهـك إنسـانيتك. فالحيـاة أقـصر مـن أن نضيعهـا في التفكـير ولـو لثـوان قبيـل الركـض. أو قبيـل الهـرب. مـا لم يكـن منـه بُـد.

-٣٩-

تتأمل ملامحه الحلوة، تود لو فتح عينيه، فقط لو فتح عينيه لتبصرهما، لو تحرك، لو نجا!

تضن به على الموت في تلك البقعة البعيدة عن بيته، وأهله، وحبيبته ربما. تفكر.

فقط لو ترى عينيه وترتوي.

يبدو كملاك يغط في نومه، توقن بنجاته.

في حين كان عقله ينقله إلى عالم بعيد.

يتذكر. قاتله التعب يومها حتى قتله، أرداه صريعا إثر ضربات موجعة في يوم كئيب عاصف، أرهقه تتابع الامتحانات الخانقة.

تجثم على روحه، تكبل حياته وكيانه.

تضلل نفسه في غابات قاحلة بادية الوحشة.

كان يحيى خارجا من أحد الامتحانات للتو. عطش في يوم قائظ.

إلى أن رآها من بعيد، فتبدت له كزجاجة مثلجة تزدان بقطرات ماء ندية مغرية.

تمايل جسدها اللدن أمام مرآه متناسقا رهيفا.

ضاقت على خصرها العباءة بما رحبت.

فتمايزت مؤخرة تُصلي القلوب بنيران متأججة شبقة.

كمنوم مغناطيسي تتابعت خطواته معها، يتلمس أرضا

وطئتها قدماها بحذاء محظوظ عالي الكعب، عمل وسعه على شد أوتارها وإبراز مؤخرتها اللعوب، وقد استوت على ساقين خططتهما العباءة بخطوط سود.

يتمايل الجسد من جديد فيتمايل القلب. والقلب يهوي ويحب.

أبصرته حتما، فالأنثى تبصر من غير نظر.

حينها كان غضا لم يلج بعد عوالم الأنثى المتوهجة البراقة.

عالم باهر متباين الأغوار متمايز الأشكال.

يموج بالصخب.

يهدر كبحر هائج لا يقر له قرار.

أو يثور كبركان، يقذف بالحمم ثم يهدأ أحيانا إثر نسمة محببة ويد حانية تهدهد الحائر، فيخر في المحراب طفلا.

عالم يحسبه الظمآن شيئا فإذا هو أشياء.

منحها نظرة حيرى فبادلته نظرة تشي بالخفر.

وإن اختزلت عبرها قسمات وجهه الوسيم ووعته.

وجه علاه الإرهاق فزاده رجولة وبأسا.

لاحت على ثغرها المحلى بالحمرة ابتسامة ثانية غنوج، تدعوه صراحة لاقتحام الخدر وولوج المحل.

أمرته عيناها المكتحلتان، وناداه وجهها الغارق في الأصباغ.

انفلت لجامه فأطلق غزله خافتا غير مسموع، إلا أنه وصل لأذنيها المرهفتين المختبئتين خلف غطاء رأس تبدت من تحته إحدى خصلاتها فابتسمت من جديد.

تكلما بلا كلام.

حتى الآن لم يعرف بم تكلمت.

لم يتذكر كيف افتتح حديثه الأول.

غير أنها كانت مرحبة مضيافة.

خافضة الرأس ما لم يلتفت، فإن التفت عنها اكتنفته بنظرة ملمة بكل تفاصيل وجهه الوسيم.

أدرك للوهلة الأولى أنها لا تدانيه عقلا أو ثقافة، غير أن جسدها المدلله تكفل باعتدال الكفة وتوازن الميزان.

لم يكن ليعنيه عقلها في كثير، فلقد اختزل الموقف في غاية واحدة منذ زمن.

شفتان مسحوبتان وإن كانتا صالحتين للالتهام، فإن أبتا فهو على التهامهما لقدير.

لقد آن له أن يكسر حدة صومه الطويل.

أخفت الأصباغ تفاصيل وجهها، ولقد تماهت ملامحها تحت وطأة تبرجها البادي للعيان.

تأمل وجهها بشبق، ولقد منى نفسه بافتراسها خالصة له في غفلة من الزمن.

استفاق من أحلامه المعربدة على تساؤل أطلقته وإن لم يتذكر موضوعه.

كل تساؤلاتها لا تعنيه في كثير أو قليل.

ها هو أخيرا صوب بوابة تلوح في الأفق، محكمة الإغلاق مجنزرة بأقفال ثقال.

ملكة متوجة اسمها الأنثى توشك أن تنزل عن عرشها، وتلتقط يديه لتبثه اليوم من شفتيها سرا، أو سحرا.

-٤٠-

الغواية حلوة، لذيذة.

لطعمها اللاذع على اللسان مذاق محبب.

لا يـدري باسـم أكان لـه أن يشـعر بالفخـر أم بالنـدم مـن جـراء مـا فعـل.

تأرجـح الشـعور كان لأنـه طـوال الوقـت لم يعـرف لم فعـل مـا فعـل مـن الأسـاس.

لم أسـلم قدميـه للريـح تـاركا الفتـاة وحيـدة في الشـقة، ومـن ثـم نـزل الـدرج مهمـلا المصعـد كأنـه لم يكـن.

لم ظـل هائمـا في الطريـق، حـد أن لم يعـرف قـط إن كان قـد اقتطع المسـافة سـيرا عـلى الأقـدام، أم اعتـمادا عـلى أن عقلـه قـد احتفـظ بالطريـق والمواصـلات، وكررهـا بـلا تفكـير كحـمار جـر صبـور.

يتسـاءل عـن كيـف صـبر عـلى تلـك الدعـوة الصريحـة وكيـف فـر؟

تراه إن قضى وطره أكان ظفر بالفتاة ومال الفتاة؟

أم كان ليكلل بالعار ما بقي!

يومهـا اتجـه رأسـا صـوب الحـمام، حيـث أفـرغ سـائل شـهوته دفقـا. متخيـلا جسـد حسـناء البـض.

بـكى ونـدم إذ كان عاهـد نفسـه ألـف مـرة عـلى أن يكـف عـن اسـتحضار نشـوته.

وها هو اليوم يسقط إلى ما نجح في الصمود أمامه طويلا.

بـل كاد يسـقط في براثـن إثـم أكـبر إثـر إغـواءات طفلـة لم تتجـاوز مرحلتهـا الثانويـة بعـد! طفلة؟!

يومها أعاد ترتيب أولويات حياته مقدما الزواج.

بـل إن باسـم المسـالم الـذي لا يتعـرض لمـا يثـير غضـب السـلطات، قـد أطلـق لحيتـه وتقـرب مـن بعـض الشـباب الملتـزم في كليتـه.

أولئـك الشـباب كانـوا قليـلي الأسـئلة. لم يعنهـم في كثـير سـوى أن مهتديـا جديـدا قـد انضـم لركـب الهدايـة.

ولم يفهـم قـط التضييـق الأمنـي الـذي لاحقهـم وقتهـا، رغـم عـدم اقـتراب أنشـطتهم مـن السياسـة مـن قريـب أو بعيـد.

وإن فـسره وفـق عقليـة أمنيـة تخلـط إطـلاق اللحـى بأحـد التنظيـمات اليمينيـة الفاعلـة سياسـيا.

يتذكـر بخجـل كيـف خضـع للتضيـق، ومـن ثـم حلـق لحيتـه كاملـة وعـاد إلى طبيعتـه القلقـة، قبـل أن تـشرق شـمس حياتـه بنهـى.

كيف نفذت إلى قلبه؟

لم يكن له الخطوة الأولى قط.

بـل فوجـئ بهـا ذات صبـاح جميـل تطلـب كشـكول محاضراتـه لتعويـض نقـص مـا فاتهـا.

كانـت بلسـما تعـد بـدواء ناجـع لجـروح روحـه، وإن لم يـدرك وقتهـا أن سـتكون جرحـه الأبـدي العـصي عـلى الالتئـام.

لا يذكر كيف تعددت مرات اللقاء.

كيـف خـرج عـن تـردده الخجـول للمـرة الأولى، إذ شـوهد مصطحبـا إياهـا ويسـيران جنبـا إلى جنـب.

انبهر أول ما انبهر بشخصيتها الكاسحة التي لا يثنيها شيء.
عدم تأثرها بآراء من حولها.
عكسه تماما -حينها- إذ تهبط به ملاحظة عابرة من عليائه وترفعه أخرى ليحلق بين السحاب.
عجبه الأكبر عن لم مالت إليه.
كان يرى في نفسه ألا يستحق الحب.
يحمل ازدراء لشخصه إلى أن أشرقت على روحه شمس نهى الشتوية الدافئة.
أشرقت في روحه شعورا بالفرح.
بحب الكون، وحب ذاته.
أمطرت على قلبه قطرات رائقات من حبها.
نهى ترياق ساحر وحب أثير.
يتذكر كيف أمدته من ثقتها، دعمته من وجودها فانطلق خلقا آخر جديدا.
وجهها المستدير المشرق.
عيناها السوداوان اللامعتان اللتان طالما اشتهى أن يبصر فيهما نفسه.
وجنتاها المتفجرتان بالدماء اللتان طالما هفا إلى تقبيلهما.
قدها الرشيق، جسدها المتناسق الرهيف.
روحها التي تشع حياة وتشرق أملا وبهجة.
امتدت حواراتهما لساعات طوال بلا كلل.
تأمله في بحر عينيها وإبحاره فيهما بلا قارب ولا شراع.
لقد خففت عذوبة نهى من كدر حياته، بل ذابت كحبيبات

سـكر في أوردتـه وكيانـه.
غير أن سرعان ما انفكت عنه تبغي فرارا.

-٤١-

الأبيض يظلل عالمه أبدا.

مـن بعيـد طيـف باسـم، يـداه تنسـلان مـن يـد نهـى ويجـري هربـا.

يختلـف شـعور باسـم القديـم عـن علاقـة الحـب «الجاهز»الـذي ركبـه في علاقتـه بحفصـة إثـر الاحتيـاج.

هائجـا مسـتثارا يسـتقبل نظراتهـا الشـبقة التـي فاجأتـه منهـا بعـد أن ألفهـا وألفتـه.

ينصهـران معـا في نوبـة حـب مجنـون تذكيهـا بنارهـا ورجزهـا تحتـه.

غـير أن سرعـان مـا يصـل إلى ذروتـه، ولربمـا لمـح في عينيهـا الواشـيتين بالشـهوة رجـاء مكتومـا أن يمنحهـا المزيـد.

لم يتصـور قـط قبـل زواجـه أن تكـون تلـك الملتزمـة باديـة الالتزام ممتلكـة لشـبق كهـذا الـذي يتخفى تحـت طبقـات جلدهـا الرقيقة.

أحبها؟ كاذب إن ادعى.

أحـب طاعتهـا، ووجههـا، وذروة شـهوة لم يفلـح يوما في اسـتجلابها وإن سعى.

اليوم.

مـع تداعـي روحـه، لا يجـد في تلـك التـي إلى جـواره نهـى التـي تركتـه.

حيال الترك نستحيل آخرين، لم يعودوا ينتمون إلينا.

-٤٢-

كان قد أدرك، وعرف، ومن عرف ما جهل بعدها.

الحب يأتينا مرة، ويتركنا مرة. فإن ترك استحال إلى اعتياد لا حب.

الحب أن آمنك أبدا، وما عاد يأمنها.

لقد كُسر حاجز أمنه للأبد إذ رحلت مختارة إلى أحد طارقي بابها إثر ضغوط والدها.

ذبحته يومها بسكين صدئة، والذبح مرة. وما بعده محض تكرار.

تركته موصوما أبدا ببقايا دم متخثر في عنقه إثر الذبح.

وما يصح بعد الذبح رتق.

اليوم ولدى عودتها أثبتت تداعي عالمه القائم فحسب.

أما عالمه القديم فما عاد يملكه.

يتساءل، لم لا يكون بإمكاننا العودة منذ البدء؟

بالعودة عند البدء مزية أخرى غير إدراك ما فُقد. ما تُرك.

للعودة للبدء ارتداد محبب.

عودة لأطوار الطفولة.

أزمنة براءتنا الأولى.

ابتسامتنا البكر ودهشتنا الحلوة.

حيث هناك فقط لا احتمالات ترك، أو ذبح.

تهاوى عالمه. انسلت أصابعه من أصابع نهى للأبد.

وولى وجهه للهرب.
يبغي فرارا صوب لائح في الأفق.
بلا حفصة، بلا نهى، بلا ثقل.
أسلم قدميه وركض أبدا، وكان العالم كله يتبعه.

-٤٣-

قوي يحيى، أو هكذا حسب نفسه.
إلا أنها لا تتوانى عن التمثل أمامه كحورية لعوب.
يتراقص جسدها اللدن أمام ناظريه.
يسيل لعابه بنهم، جسدها المتوهج بالشهوة الواشي بالشباب.
متوجة على عرشها تختال، يزينها التاج أو تزينه.
يرتسم حاجباها ليظللا على عيني مها.
وتنطلق حليها ثعبانا يسري بين سر الحياة. وسر الحياة تفاحتان ناضجتان تختالان.
ينتشي قرطها فرحا بما نال.
شفتان مغرورقتان بالحمرة شهيتان، تغريان بالالتهام.
وأنف رفيع يشي بالرقة تستنشقه الحياة.
شقراء غانية، أم سمراء فاتنة، يُولع بالتفاصيل الصغيرة.
تعده بساعات (أم تراها دقائق؟) من المتعة والانتشاء.
حتام يطول الفراق؟
أما من سبيل للخلاص؟
تتربص به في دنيا الأحلام، تخطو فوق أرض مخملية ناعمة.
تشب على أصابع قدمين نظيفتين، كفراشة مزدهرة.
تلوح بألف لون ولون.
تراوده.
يبتسم بود، وتلوح على ناظريها نظرة ناعسة غنوج، يلتمع

جسـدها مـن جديـد.

أما من سبيل للخلاص؟

تناديـه بصـوت رقيـق تتخللـه بحـة متواريـة في غياهـب النسـيان، أواه مـن النسـيان.

ليته ينسى تمايلاتها وتمايلات قلبه.

ليت ذاك الوهج الذي بثته إلى جسده يخبو أو ينام.

ليت ذهنه المشوش يصحو فيدارك حقيقة الأمر وجلاءه.

تراهـا حوريـة سـاحرة؟ فتنـة تـؤرق نومـه؟ أم امـرأة عاديـة تبـدت لـه فتنـة حـين أراد.

قوي هو غير أن براثنها تخلب الألباب.

ولقد تبدى له لوهلة كم هو رائع التردي والسقوط.

واستيقظ ولقد دنسته الأحلام.

للمـرة العـاشرة تناهـى إلى أصـوات الجميـع الصـوت الصـارخ بفرحـة:

- لقد فتح عينيه، لقد نجا أخيرا!

-٤٤-

بعد أشهر:

حين عبر يحيى الطريق المزدحم، كان عقله منفصلا بالكلية، متخما بالتفاصيل الدقيقة التي تتشكل بدأب، تتشكل بنيانا يثقل روحه، المستقبل كذا يلوح، الأمل يحدوه بينما يسعى هو بإصرار، الإصرار قاتل أحيانا.

هو خير من يعلم ذلك، إصرار على تنظيم الرحلة واصطحاب حبيبته، وهو الذي لم يدرك شيئا عن تنظيم الرحلات من قبل، إصراره على التوصل لدليل دفعه إليه القدر بمحض الصدفة والخطأ، طالعته ابتسامة السيدة الأنيقة العجلى، اخترقه عطرها وشذاها، لاحت منها التفاتة تطفر بالأمل ولم يعقب، اتجه رأسا صوب الهدف، اللافتة الشامخة التي تلوح من بعيد، تعبق بالتفاصيل الدقيقة وتبشر بالحلم، تحمل اسم شركة الدواء متعددة الجنسيات الشهيرة، سويسرية المنشأ، يجتاز البوابة الحديد ومن ثم يدلف إلى غرفة الأمن، يتذكر تفاصيل سيناء البعيدة، تفاصيل دقيقة تشكلت قبلا لترسم حياته وتنتزع زهرته!

لقد عمل البدو لإنقاذهم، تمطت الأم البيروقراطية العجوز وتجشأت، هبت لنصرتهم إثر الضغوط، زاد عدد أبنائها كثيرا ولا ضرر من فقد البعض!

الطائرة تحلق لمرات فوق المنطقة الموبوءة بفقدهم، حددت

موضعهم غير أن حجمها يعيق هبوطها في تلك البقعة الوعرة، والتجهيزات لا تفي، حسنا، لا بد من انتظار ما يفعله البدو من استنطاق أرضهم، بعض التنسيق لن يضر أحدا.

يتذكر يحيى ذلك اليوم جيدا، خطواتهم الهلعة حين اشتداد العاصفة على غير هدى، أدركهم التعب فتوقفوا، العاصفة أشد من أن تُحتمل، الصقيع يعصف به، يخدر أطرافه عرضة للتساقط، فيما بعد أدرك أن من التجهيزات ما كان يلزمهم (خدعهم الدليل؟)، لم يدر هذا بخلده وقتها، ما أدركه أنه نادى ميار فلم تجبه.

ميار!

من عزفت على روحه موسيقى كلاسيكية خالدة، من فاحت كعطر باريسي خلاب، وذابت في أوردته كشيكولا سويسرية ملهمة.

رحلت!

صرخ بها صرخة هادرة ارتج لها الجبل!

لقد أجهز الموت الأسود بمنجله الغادر على حبه، تلك الأجساد النابضة بالحياة الراجفة بالبرد ستوؤل إلى الموت هذا المساء!

عدة جثث وبضعة أرقام، البعض يتغنى باسمها حينا ولربما شمت آخرون.

لكنه لن يسمح بأن يؤول ذكره إلى هذا المنتهى.

انتصب واقفا.

لن نظل ها هنا أبدا بانتظار داعي الموت، لن أستسلم

للمـوت! قالهـا ثـم مـضى.

- اسم حضرتك؟ اسم المقصود بالزيارة والغرض من فضلك.

انتزعـه صـوت رجـل الأمـن، يـدون المعلومـات بسرعـة ومـن ثـم يطلـب بطاقتـه الشـخصية ويمنحـه بطاقـة مـرور حفـر عليهـا شـعار الشركـة واسـمها.

- ستسمح لك البطاقة بالمرور عبر البوابة، حضورك يشرفنا.

«ارتسـمت عـلى وجهـه ابتسـامة مرحبـة ومـن ثـم أشـار لـه بالخـروج»

بخطـوات واثقـة كأنمـا فعلهـا يحيـى مـرات، مـرر البطاقـة عـبر البوابـة الإلكترونيـة التـي انفتحـت مصـدرة تكـة معدنيـة، دلـف إلى عمـق المبنـى مبهـورا بحجمـه، حينـما قـال لـه المتصـل بـأن المقابلـة سـتجرى في المبنـى الحـادي عـشر، تخيـل أن الشركـة تقـع في ذلـك المبنـى مـن شـارع مـا، لم يتوقـع قـط أن يكـون العكـس وأن المبنـى هـو الواقـع في إطـار الشركـة!

مقر الشركة ضخم كحلمه.

اتجـه رأسـا إلى المبنـى المقصود، موظف الاسـتقبال يرسـم ابتسـامة مرحبـة ويجـري اتصـالا روتينيـا ومن ثـم يشـير إلى المصعد.

كان وحيـدا وانغلـق بـاب المصعـد مـن خلفـه، تأمـل وجهـه الحليـق تمامـا في المـرآة ودهمتـه الذكـرى.

الهـواء مشـبع بـبرودة مميتـة، تلسـع نـدف الثلـج جسـده بـلا توقـف حـد الخـدر، ويغـوص في نخاعـه، يطـرق العظـام، ويشـقق الشـفاه حتـى يختفـي منهـا أثـر الحيـاة، شـفاهه التـي تصـارع السـكرة تنطـق بالكلـمات، تنسـاب مـن فمـه بغيـة التحـرر، وكأنمـا

يخفف عن ظهره ثقل خطيئتة الأبدية التي يدفع ثمنها أنى ارتحل، بلا حول ترفع رأسه يد حانية، الحساء الدافئ ينساب إلى أوردته بلا وسيط، وتواصل كلماته التحرر، تتوق روحه للخلاص، الأقمشة البيضاء المحايدة تظلل المكان، تنبئ بماهيته، الممرضة الحسناء تبتسم، والطبيب يقيس النبض بحياد:

- لكن حديثك غير منطقي يا بني!

يستعيد صدمته من جديد.

- عندما وجدوك كنت على مسافة بعيدة عنهم جدا، كنت كمن رأى الموت قولى وجهه هربا، لقد نجوت بأعجوبة من موت محقق، باسم أيضا فعل، كلاكما وجد على مسافة بعيدة وإن تباينت اتجاهاتكما، العاصفة كانت أقسى من أن يدور حوار كهذا، يبدو أن قلة الأكسجين الواصل إلى مخك قد صورت لك هذا كله.

يتأمله بحياد، هل هو وهم ما عاشه حقا؟ فما الحقيقة إذن؟ كيف يتبينها من تلك العتمة القاسية؟ كيف يحررها من لجة الوهم ويراها خالصة؟ وإن كان ما سمعه وهما فماذا عما قاله؟ هل تخيله أيضًا؟ لربما استيقظ يوما ليجد أن حياته كلها كانت وهما!

قطع مرأى الفاتنة عند باب المصعد خيط أفكاره، بزيها الرسمي بالغ الأناقة والفتنة، لقد رأى منذ دلف تلك الشركة في جملة المقابلات السابقة أكبر عدد من الجميلات رآه بحياته، لكنه لا يزال متحفظا يخشى الزلق، فخطأ واحد قد يكلفه فرصة حياته في الالتحاق بتلك الشركة، ابتسم ابتسامة مجاملة

ومـن ثـم تنحـى عنهـا، لم تعـد تغريـه المظاهـر البراقـة، أم تـراه انتـشى بالحـب؟

يدلـف إلى قاعـة الانتظـار مثقـلا ببذلتـة الرسـمية التـي تبديـه أنيقـا وتخفـي مـا اعتمـل في ذاتـه مـن جـروح، يبتسـم ابتسـامة محايـدة لا تنبـع مـن أعماقـه، يخـوض لجـة الحيـاة متمسـكا بدبلوماسـيته القديمـة.

تتبـدى الحيـاة كشـطرنج تماهـت رقعتـه وتداخـل أبيضـه وأسـوده في تركيـزات عـدة، ينسـجمان ويتشـكلان مـن جديـد، درجـات الرمـادي هـي اللاعـب الرئيـس، القيـم الخلقيـة التـي أرادتهـا الراحلـة تنهـرس في تـرس الواقـع وزخـم العجلـة ولجـة الحيـاة العمليـة وقسـوتها، ينصبهـا اليـوم قديسـة حقيقيـة إذ زال منـه حـظ النفـس في التغلـب عليهـا، ككل المـوتى فقـدت مزيـة المنافسـة، واكتسـب هـو أفضليـة أنـه هنـا، حـي، يقـول ويقـرر، وأن يشـعر بـأن روحـه التـي تحـررت آنفـا تعـود للاستسـلام لقيـد جديـد.

سيجتاز تلك المقابلة الأخيرة حتما، هذا ما أمل.

-٤٥-

(كنت وغدا يا جمال!) يخاطب نفسه ويتذكر!

حين تسارعت خطواته هابطا الجبل، في انتقاله إلى بلدته، اكتظ جيبه بالمال، والمال يفعل الكثير.

يومها كان مثقلا بالوهم، سيسدد تكاليف ولادة زوجة أخيه، سيثبت للأب أنه محل ثقة.

كذا منى نفسه، طرق البلدة ودروبها، شوارعها المتسعة غير الممهدة التي عهدها ومن ثم دلف إلى منزله الخاوي على عروشه، غياب مريع في رجال القرية مثلما ظهر، أخبروه عن زوجة أخيه التي جاءها المخاض فكان لزاما أن تنتقل إلى عيادة الطبيب في المدينة، رجال البلدة الذين انطلقوا جميعا دعما للأب رشاد.

العم كمال نفسه بجلبابه البدوي القصير ومعطفه الثقيل الذي اشتراه منذ سنوات طوال من بورسعيد ولربما لم يخلعه من يومها، العم كمال قد قبل بأن يحرك سيارته العتيقة في ذلك الوقت المتأخر والطقس السيئ، صدم جمال بمرأى الرجال هناك ملتفين حول أبيه، محتلين مكانه الذي احتله عبد الله قبلا، حساب الطبيب قد دُفع بأكمله، لوازم الوضع ومتطلبات زوجة الأخ قد تكفل بها رجال البلدة الذين لم يشغل جمال نفسه لوهلة بتفقد وجوههم قبلا، يجلس في غرفته منزويا،

متأملا أموال أبناء العاصمة التي تناثرت أمامه، أبناء العاصمة الذين قد ضربت عاصفة ثلجية جبلهم ليلة صعودهم، لم يعتد السماع عن عاصفة من قبل، ولم يسمع عن تحذيرات الأدلة من الطقس السيئ في الليالي ماضية، يتابع تحركات أبيه الدؤوب، سعى للاتصال بأحد رجال القبائل في الجنوب، غير أن الاتصال مقطوع كالعادة، فأرسل من ائتمنه على رسالته إلى رجال الجنوب.

لم لم يرسله أبوه؟ اكتفى بنظرة لائمة فاحصة! تراه اكتشف دوره في القصة؟ لم يلم جمال بتفاصيل الأمر، مواقع التواصل تجري على قدم وساق، استغاثات لطائرات الجيش بالتحرك، العاصفة شديدة وصعوبة تحديد موضعهم لن تسمح بإنقاذ سريع، كانت الأفكار تصهره في لجتها، أما اليوم فيسحقه زحام العاصمة، الأجساد المعروقة، يسرع الخطى فلا يكاد يبين.

يسابق الزمن فلا يدركه، الأصوات الصاخبة تخترق أذنيه غير أنها تتوقف كما ينبغي لها عند صخرته الناتئة. تتكسر.

وينساب إلى كيانه صوت الأب.

وجهه المتغضن الأبيض المشرب بالحمرة، لفحته الشمس بقيظها، وأنضجته الحياة بقسوتها، وجوده الذي صار جزءا من المكان وصوته القادم من أزمنة سحيقة، موجة عاتية، تتشكل من قطيرات حانية، غير أنها تتجمع وتتخلق وجودا وكيانا عاصفا.

لقد انساب نهر الحكي أخيرا حتى المنتهى.

البئر السحيقة قررت أن قد حان الوقت لتنزح عنها بعض

الماء.

كانت الحرب على أشدها، وابنة العم محجوزة لي سلفا مثلما يقضي العرف.

كانت فاطمة لحنا صافيا، نيلا بعيدا سائغا شرابه يبشر بوعد الجنة في حياة أبدية، ترنيمة مقدسة آمنت بها وهمت بها حبا، والأجمل أن قد كانت مقدرة لي سلفا، وعدا آمنت به كما آمن أولئك الأبالسة في الشرق بأرضهم المقدسة.

لقد أحببتها يا بني والحب قيد، قيد لذيذ يدفعك إلى التمسك به.

كانت النكسة قاصمة، استقبل عمي جندي الجيش المدحور بثقلها أياما ثم هربه، كانت فاطمة تطببه، وكنت أغار.

نطقها بألم.

كانت فاطمة منيعة، سدا صامتا، عيونها الحلوة تأبى إتمام الزيجة، وترنو نحو الغرب!

عمه يستقبل ابن الوادي المدحور بالحرب وابنته تطببه.

انتصرنا بعدها بسنوات، ولقد تقصيت فعلمت بأن ذات الجندي قد قتل في المعركة!

ربما قتله خرق القيادة المنتشية بالنصر حد فك سلساله واستحالته كابوسا جرينا لإنهائه في ساحات التفاوض.

كنا نقاتل العالم يا ولدي ولكن منذ متى كان قتال العالم صعبا؟

الأرض شرف يا بني، من باعها باع شرفه، ومن باع شرفه لا يعذره شيء.

لم يكن من السهل أن أعرف بمقتله، كلفني ذلك جهدا ومالا غير أن المرء لا ينسى غريمه.

وأويت إلى بيتي حيث معركتي المعلقة، زوجتي المنيعة التي تأبى أن تلين.

ظلت متباعدة عصية، تلمح الحب في عيني فتأبى، تقبل وجودي غير أنها تبادله رفضا، والعاشق صابر رغم أنفه.

ولد أخوك بعد أشهر ولقد عددته امتدادا للمعركة، ألهمت حبه.

تراودني الأحلام بأن تلين.

عندما حاول الصهاينة استمالتنا لم يدركوا بأن قلوبنا تهفو إلى واد من جنة.

ارتبك جمال، فالرجل يتنقل بين موضوعاته كشيخ أثقله النسيان، غير أن ذاكرته متينة، مدار الأمر واحد غير أن جمال لا يفهم.

بعد سنوات النكسة وقبل سنوات تيهنا الأربعين، عرض علينا شيطانهم «موشي ديان»التدويل، سيناء حرة يحكمها أهلها شريطة أن تستقل عن مصر.

أولئك الأبالسة يعرفون الأصول!

توجهوا رأسا إلى روؤس القبائل وفاوضوا لأجل عرضهم المشؤوم، كان عبد الناصر يعد العدة في العاصمة، سيعيد ترتيب البيت ليحيل أيامهم سوادا.

(عبد الناصر ضيعها يا أبت، ود جمال لو قال)

أدركوا ذلك ورغبوا في أن يتركوا له كرة لهب لا تهدأ بداخل

الـدار، مسـمار جحـا!

تفاوضـوا وسـعوا وأغراهـم «سـالم الهـرش»، شـيخ القبائـل، بقبـول التفـاوض وبـأن يعلـن ذلـك عـلى الملأ في مؤتمـر دولي.

إذا مـا قالهـا «الهـرش» فكلمتـه سـيف عـلى الـروؤس، لا يجـرؤ سـيناوي عـلى المخالفـة، والعـالم يشـهد ومندوبـو الأمـم المتحـدة حضـور.

ولكـن «الهرش»مثلنـا، قلبـه مغمـور بحبهـا وإن قسـت، لم يفهـم أولئـك الصهاينـة ذلـك، ولـن يفهمـه أبالسـة اليـوم أبـدا، قلوبنـا تهفـو إلى الغـرب يـا بنـي، قلوبنـا مغمـورة بحـب والحـب لا يسـتحيل كرهـا!

قـال لهـم بـأن سـيناء تابعـة لمـصر أبـدا، ومـن أراد أن يتحـدث بشـأنها فليتجـه صـوب الغـرب، إلى الحكومـة القابعـة في العاصمـة!

يومهـا ردد رؤوس القبائـل أن «اللـه أكـبر»، تختلـف عـن تلـك التـي يرددهـا ملاعـين اليـوم...

«قتـل الجيـش ابنـك وحـاول الملاعـين ترضيتـك لتشـتمهم». أراد جـمال أن ينطـق.

أهـل الـوادي لا يعرفوننـا يـا بنـي، لا يعرفـون عنـا سـوى الصحـراء وسـكناها، لا يعبـؤون بنـا، ومـن جهـل معـذور بجهلـه، ومـن عـرف أحـب أو كـره.

لم تعـرف فاطمـة مقـدار حبـي، أو لربمـا لم تتصـوره، لـو اطلعـت عـلى قلبـي لعرفـت، ولـو عرفـت لأحبـت، لا يسـتبدل بالحـب إلا حـب أقـوى منـه يدفعـه.

لا يعرفوننـا يـا بنـي، يترنمـون بحـب سـيناء مـرة في كل عـام وقـد

جهلوهـا، كأنمـا يسـقطون بدعواهـم عـبء ضميرهـم المثقـل.

يتذكـر جـمال أيـام الثـورة، لم يحـب أبـوه «مبـارك» قط، كان سـبه فرضـا عيانـا كل حـين، كان يرقـب عينيـه المتقلبتـين عـبر الشاشـة ترقـب تتابـع الأحـداث وعبـد اللـه معـه، يتذكـر جـمال يـوم جـاء عبـد اللـه فرحـا:

- الطفـل لم يجتـز الحاديـة عـشرة، ويقـذف قسـم الشرطـة بالحجـارة، يسـألونه: لم؟ فيقـول: ضربنـي الأمـين ابـن الكلـب كفـا! (كـم ضرب أهلنـا بالكفـوف عـلى أقفيتهـم!)

مـع بدايـات أيـام الثـورة بـدأ الكفـاح المسـلح في مـدن سـيناء، ضـاق النـاس ذرعـا بتشـديد الخنـاق، ولمحـوا زوال الطاغيـة آن، لكـن الأب يـردد:

- ربنا يستر.

لم يهتـم جـمال بالأمـر، فـرح عنـد سـماع خطـاب التنحـي، غـير أنـه لمـح زيغـا في وجـه أبيـه

- ربنا يستر.

كذا قال، فهب عبد الله فرحا:

- رحل الطاغية يا أبت.

- ربنا يستر يا ولدي.

- حتام الخنوع؟ البلد صار لنا!

- ليس لنا غير الجيش يا بني، مردنا له. يقولها ويزيغ بصره.

لم يفهـم عبـد اللـه يومهـا، ولم يعـتن جـمال بالفهـم، الجيـش معنـى بعيـد، لم يطـأ أرضهـم منـذ أمـد، منـذ سـنين الحـرب تقريبـا، والشرطـة تعمـل فيهـم المظـالم بـلا رادع أو رقيـب.

الجيش لا يفهم غير الضبط والربط، وهم قوم مقامهم السماء وديدنهم أن لا قيد.

لم يصدق جمال حتى هذه اللحظة بعض ملامح الفرحة الخفية التي رآها في عيون أهالي بلدته ليلة مقتل عبد الله، فإن يقتل أحد الأهالي على يد الجيش -ولو خطأ- سينفي عنهم تهمة التآمر ضد الإرهابيين مستقبلا وإلا ساموهم خسفا.

أولئك قوم لا فهم لهم، يحاربون جيش بلدهم من أجل وهم، كذا يردد الأب، حاولوا أن يسترضوا الأب بالمال بعد قتل الجيش لعبد الله، ليصدروا أنفسهم بدلا للحكومة، أو عوضا عمن أراد الجيش قتله منهم في واقع الأمر، مال يدفعونه لأسر من مات.

يردون أن يستميلونا يا بني مثلما فعل الصهاينة بالأمس، ألم أقل لك أن لا فهم لهم؟ لا يفهمون أن لنا قلوبا تهفو إلى الغرب!

اعتذر أبوه بالكفاف وبأن المال ربما ذهب لمن هم أولى من الأسر الفقيرة، ليس من مصلحته أن يناصبهم العداء علنا.

ليس لنا غير الجيش يا ولدي، يقولها ويزيغ بصره.

أحببت فاطمة يا بني، ابتسامتها متباعدة، روحها عصية، أحببتها، غير أنها أحبت غيري.

غاصت كلمات أبيه في روحه، روح كرمال صحراء امتدت على امتداد الطريق، على جانبي العربة المتهالكة التي أقلته، حيث أخذته سنة من النوم.

كم حمل ذلك الشيخ من حمل ثقيل؟ ألم يأن لحمل جمال

أن يسـقط مـن تبـة الإهـمال؟ أن يـدرك طريقـه المتماهـي مـع تلـك الظلمة ؟

غير أنه كما اعتاد، يتوه في النسيان.

خاتمة

في لحظة ما سوف تتوقف عن الركض، تطل على شاطئ انطلاقتك البعيد، وتتيقن أنْ أزف الوصول، لا تستطيع تعيين موعده غير أنه آت لا محالة في أمد قريب، وإن طال الوقت فحتما سيمضي كما مضى وقتك منذ الانطلاق، هل كنت لتتخيل أنك استنزفت كل تلك الدقائق لولا نظرة عجلى إلى الوراء؟ ينساب العمر من بين أصابعك الزلقة، يتسلل برفق وإن شددت العزم، ينبئك بأن قد أزف الوصول، تطالع آراء أولئك الحمقى في الخلف، غير أنك تتجاهل أنهم لم يمتلكوا زاوية رؤيتك بعد!

افرد أشرعتك وواجه عاصفتك كالرجال، أطلق جناحي آمالك ولا تتدثر في ركن السفينة، فلا مكان لجبان ها هنا، قاتل لأجل الوصول منتصرا، كي تستقبلك مدينتك فاتحا في موكب المجد، كي تحليك بتاج الفخار، وكيلا تطفر الحلم دمعا.

تمت

في **كيان للنشر والتوزيع**، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتَّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش. ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235688678- 0235611772**

هاتف محمول: **01001872290/ 01005248794 / 01000405450**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpubishing

+KayanPubishing

KayanPublishing